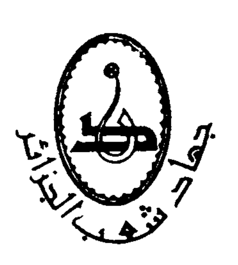


اللهُ أكبر

.. وانطلقتْ ثورةُ الجزائِر


بسم الله الرحمن الرحيم



الله أكبر
.. وانطلقت ثورة الجزائر

بسّام العسليّ

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الثانية : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

○ دار النفائس

بيروت: ص.ب ١١/٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

الإهداء

إلى روح الشهيد مصطفى بن بولعيد بطل الأوراس الأسطوري
وإلى روح الشهيد محمد العربي بن مهيدي بطل المقاومة في الجزائر ،
وإلى أرواح إخوانهما من الشهداء الأبرار الذين أضاؤوا مشعل النور أمام شعب الجزائر المجاهد،
وإلى إخوانهم المجاهدين الذين تابعوا حمل رسالة الاسلام وأمانة العروبة وانتصروا بها، ونصرها الله بهم.
إلى هؤلاء وأولئك الذين لا يزيد من مضى منهم على من بقي حياً إلا بشرف الشهادة.

مُقدّمة الكِتابْ

ويطول ليل الاستعمار حتى لتكاد النفوس الظامئة للحرية تيأس من بزوغ الفجر. وتشتد وطأة الاستعمار حتى لتكاد النفوس المعذبة تفقد الأمل من عدالة الحياة. وللفجر موعده، وللحياة نواميسها وقوانينها المحكمة.

وكما يلتمع البرق في الليلة الظلماء الداكنة السواد، وكما ينبع الماء من الصخر الأصم. انطلقت صيحة «الله أكبر» في ليل عيد جميع القديسين، وترددت في كل مكان من الجزائر صيحات «خالد» و«عقبة». إنهما كلمتا السر والتعارف اللتان اتفق عليهما الثوار للتعارف فيما بينهم.

« الله أكبر » ـ خالد ـ عقبة ـ وتردد جبال الأوراس أصداء الصيحات المنطلقة في السهول. « الله أكبر » خالد ـ عقبة ـ لقد آن للفجر أن ينبلج، وللنفوس العطشى أن تنهل من مورد الحرية العذب ومن منهل الكرامة الصافي.

وأفاق الشعب الجزائري على فجر يوم جديد، إنه فجر المستقبل الذي طال انتظاره. وقليل هم الذين وصلتهم أصوات الانفجارات الأولى، وأزيز الرصاصات المبكرة التي أطلقتها حفنة من الثوار؛ معلنة بها بدء جولة جديدة من جولات الاحتكام للسلاح. غير أن من فاتهم

سماع صوت مؤذن الفجر، لم يفتهم قراءة البيان الذي أعلنه ثوار الفجر.

«أيها الشعب الجزائري» «أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية».

إنها منظمة ولدت مع الفجر، تحمل اسم «جبهة التحرير الوطني»، و«جيش التحرير الوطني»؛ وقد بدأت هذه المنظمة تأكيد وجودها بالنار وبالتوجه إلى «الشعب الجزائري».

ولكن من هم هؤلاء الذين يختفون وراء «التسمية الرمزية» أو «الشخصية الاعتبارية». لقد عرف شعب الجزائر أسماء لامعة، وقادة بارزين، تولوا الصراع وقادوا الجهاد بأسمائهم العلنية الصريحة. ولم يحدث قبل اليوم أن تعامل الجزائريون مع «مجهولين». ذلك لغز يجب حله؟.

وينظر الاستعمار بكثير من اللامبالاة إلى تلك الظواهر المتفجرة التي برزت في ليل عيد جميع القديسين. لقد تعودت الاستعمارية الإفرنسية على قمع ثورات أضخم، وحروب أكبر، فكيف اليوم، وفرنسا تمتلك من وسائط القدرة العسكرية ما لم تمتلكه من قبل. ويصرح الحاكم بأمره في الجزائر «إنهم مجموعة من العصاة المتمردين ـ الغلاقة ـ وسيتم سحقهم قريباً». وتخرج الحملات العسكرية وتعود، دون أن تتمكن من سحق «الغلاقة».

وبدأ «شعب الجزائر» في التعرف على تلك الفئة المختارة من المجاهدين، الذين أنكروا وجودهم ليقدموه هدية لشعبهم. وتوثقت عرى التعارف من خلال ما كان يقدمه المجاهدون من تضحية وفداء. فأقبل على حاملي لواء الجهاد، يحتضنهم ويحميهم ويدعمهم ويفتديهم بكل ما يملك، ويشاطرهم آلامهم وبؤسهم

وشظف عيشهم. ويقاسمهم تضحياتهم. ويجن جنون الاستعمار، فيقذف بكل أسلحته للمعركة، ويقذف الشعب الجزائري بالمقابل بكل قدراته وإمكاناته. ويتطور الصراع المصيري بين قوتين: **قوة هابطة** تمتلك كل القوى ما عدا الإيمان، **وقوة صاعدة** لا تمتلك شيئاً إلا الإيمان.

وتأتي تجربة التاريخ لتؤكد من جديد انتصار «**قضية الايمان**». تلك هي بايجاز « بداية الثورة، وتلك هي قصتها ».

انها قصة « القادة التاريخيون » الذين عرفوا قدرات شعبهم وإمكاناته، وما يتفاعل فيه من انفعالات، وهي قصة « أصالة الشعب » الذي فقد كل شيء الا إيمانه بالله وبإسلامه وعروبته، وهي أيضاً قصة تيار الأحداث وتطوراته في العالم وهو ما أدركه شعب الجزائر المجاهد وقادته التاريخيون وتجاهله دهاقنة الاستعماريين المتعلمين والمتحضرين والعقلانيين.

بضع مئات من الثوار، تسليحهم بواريد الصيد وبعض الأسلحة الحديثة وقيادة تضم بضعة أشخاص مغمورين تقريباً. وكلهم نصيبهم من العلم الحديث قليل، ونصيبهم من الايمان كبير. لم يلبثوا أن شكلوا تياراً جارفاً قفز الى الآلاف والى عشرات الالوف ثم الى الشعب الجزائري كله خلال فترة قياسية من عمر الزمن، ولم يكن ذلك ليتحقق أبداً لولا التقاء العوامل الثلاثة: القيادة والشعب وتيار الأحداث في فجر عيد جميع القديسين.

ولم يكن من العبث ـ أو بمحض الصدفة ـ اختيار فجر عيد القديسين موعداً لانطلاقة الثورة. ولم يكن من العبث أيضاً، تحديد شعار انطلاقة الثورة بكلمة الجهاد الخالدة « الله أكبر » واتخاذ كلمتي

« خالد وعقبة » رمزاً للسر والتعارف بين الثوار التاريخيين.

لقد أعد كل شيء بإحكام رائع، وبدقة متناهية، فكان ذلك التنظيم هو السلاح الأول في عدة الثورة .

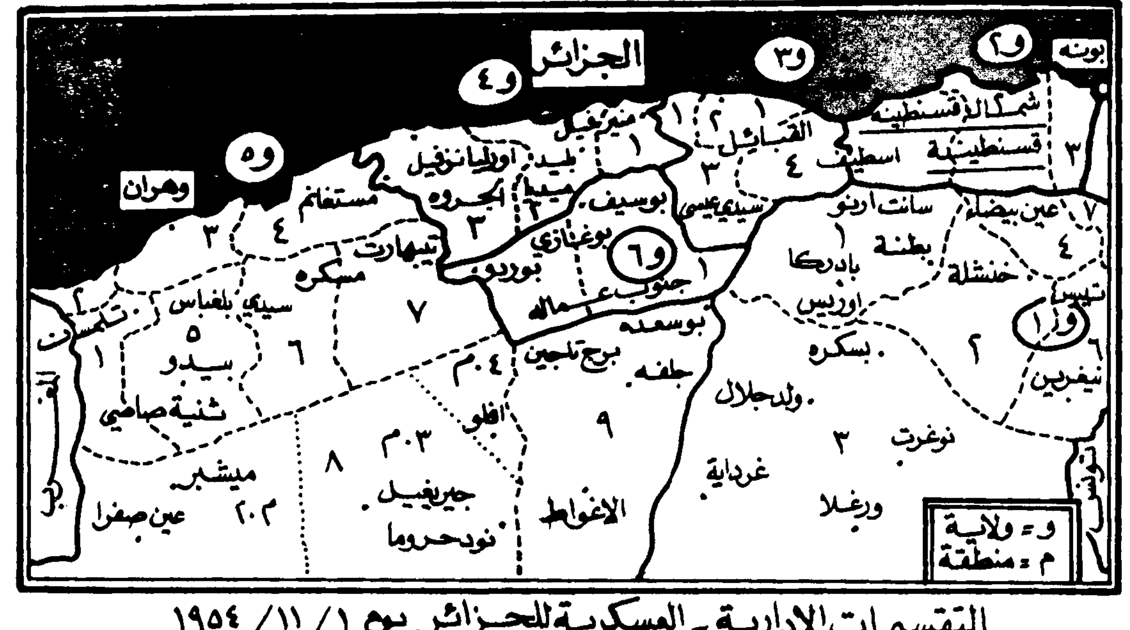
لقد ربطت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، خطوات الثورة بالأصالة التاريخية للشعب الجزائري المسلم المجاهد. وأعادت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، ارتباط الشعب المجاهد بمحيطه التاريخي والجغرافي الطبيعيين (المغرب وتونس والعالم الاسلامي - العربي) فكان في ذلك أيضاً بعض عدة الثورة في الانتصار على أعداء الثورة في الداخل والخارج.

وتبقى قصة الثورة الجزائرية، أكبر من الكلمات، وأعظم من كل وصف. إنها قصة الحياة لشعب رفض الموت، وانتصرت الحياة على الموت. وهي قصة شعب أحب الموت فوهب الله له الحياة.

بسام العسلي

اللهُ أكْبَرُ - وَانْطَلَقَتِ الثَّوْرَةُ

هَاتِ البَشَائِرَ لِلْجَـزَائِرَ هَـاتِهَا
إنَّ آلجَزَائِرَ أَبْصَـرَتْ غَايَـاتِهَا
عَقَّدَتْ لَهَا عَزَمَاتَهَا فَمَن آلذِي
غَيْرَ الإلَهِ يحِـلُ مِنْ عَزَمَـاتِهَا
اللهُ أكْبَـرُ هَـؤُلَاءِ جُنُـودُهَـا
لَبُّوا لِدَعْـوَتِهَا نِـدَاءَ دُعَاتِهَـا.



التقسيمات الإدارية - العسكرية للجزائر يوم ١/ ١١/ ١٩٥٤

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ . وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ* فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .

الفصل الأول

١ـ الوضع العام في الجزائر عشية الثورة.

أـ اغتصاب الأرض.

بـ الموقف السكاني «الديموغرافي».

جـ النهب الاستعماري.

دـ البترول والغاز الطبيعي.

هـ الموقف التعليمي (الثقافي).

٢ـ الموقع الجيواستراتيجي والطبوغرافي.

أـ١ـ إقليم الشواطىء.

أـ٢ـ إقليم الأطلس التلي.

١ ـ الوضع العام في الجزائر عشية الثورة

لم تكن الثورة التي انفجرت في الجزائر في الفاتح من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ مجرد رد فعل على سياسة معينة، أو نتيجة إجراء استعماري محدد. فلقد كان نسيج الثورة متصلاً بعرى وثيقة ومتلاحمة مع مجموعة الحروب، والثورات والانتفاضات، وأعمال المقاومة التي اضطلع بها شعب الجزائر، طوال ليل الاستعمار الذي بدأ بالغزو الإفرنسي البربري للجزائر المحروسة في سنة ١٨٣٠، والذي انتهى بانفجار الثورة التحررية الكبرى في سنة ١٩٥٤.

قرن وربع القرن؛ وشعب الجزائر المجاهد يحمل السلاح ضد الغزاة البرابرة.. لم يهن له عزم، ولم تلن له قناة، وهو يدفع بقوافل الشهداء، القافلة في إثر القافلة، والموجة تلو الموجة، حتى حقق أهدافه.

ولقد تحمل الشعب الجزائري من عنت المستعمرين، وجور أجهزة الاستعمار؛ ما لم يحتمله شعب من شعوب العالم، دونما تحيز أو مبالغة، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر في مقاومته، وأتعب فرنسا ولم يتعب، غير أن هذه الحرب طويلة الأمد، عملت على تغيير مجمل أوضاع الجزائر تغييراً كبيراً؛ لا في مجال الاقتصاد وحده، ولا في مجال التكون

الاجتماعي والثقافي أيضاً. وإنما في مجموع الأوضاع التي يعيشها المواطن الجزائري والوطن الجزائري. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ـ وعلى نحو ما سبق عرضه في الكتب السابقة من هذه المجموعة.

فقد جاءت الثورة الرائعة ثمرة إعداد طويل. . بدأ على وجه التحديد بالنشاط السياسي الذي قام به الأمير « خالد الهاشمي » في العشرينيات من هذا القرن، واستمر بعد ذلك عبر « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » من جهة، والتنظيمات السياسية من جهة ثانية، وعلى هذا فان الثورة الجزائرية الكبرى تتصل بمجموعة الأوضاع الناجمة عن الوجود الاستعماري ذاته، والذي دفع البلاد ومواطنيها إلى أوضاع لا يمكن معالجتها إلا بإجراء تغيير جذري وشامل، ومضاد بالضرورة للاستعمار الاستيطاني. وقد جاءت مذبحة أيار ـ مايو ـ ١٩٤٥، وأعمال القمع التالية لتشكل الحافز المباشر للثورة. ومن هنا قد يكون من الضروري استقراء بعض ملامح الوضع العام للجزائر عشية ثورتها المباركة.

* * *

لقد عرفت الجزائر، منذ أقدم العصور، بغنى ثروتها الطبيعية، شأنها في ذلك شأن كل أقطار المغرب العربي ـ الاسلامي. ولقد أقام الفينيقيون على شواطئها عدداً من المراكز « الزراعية ـ التجارية » التي سميت فيما بعد باسم « أهراء روما » قبل أن يطلق عليها اسم « افريقيا ذات الأرض الخصبة ». وقد عاشت الجزائر قبل أن تجتاحها جحافل الغزو الاستعماري الافرنسي في سنة (١٨٣٠) حالة ازدهار حقيقي، وعرفت رغد العيش. فالزراعة فيها كانت متطورة،

والتجارة البحرية ناشطة ومزدهرة... فكانت تمون بالحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى كثيراً من بلدان الغرب الأوروبي؛ وتموين حملة نابليون دليل على ما كان يتوافر للجزائر من الثروة الزراعية؛ كما كانت تصدر أدوات فنية ذات شهرة واسعة. وبعد مرور قرن على استعمار هذه البلاد، لم تتوقف الجزائر عن التقدم في المضمار الاقتصادي فحسب، بل إنها شهدت تقهقراً وتراجعاً في مستوى حياة معظم المواطنين الجزائريين، بالمقارنة مع مستوى حياة أسلافهم. هذا بينما كان العالم يتطور في هذا القرن، ويتقدم بقفزات واسعة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

وقد ظهر في الواقع أن ازدهار المواطن الافرنسي، وارتفاع مستوى دخله، إنما هو ازدهار اصطناعي على حساب المواطن الخاضع للاستعمار. والأمر مماثل بالنسبة لفرنسا - كمجموع - والتي طورت تقدمها على حساب الشعوب التي أخضعتها لنير عبوديتها. ولم تكن مثل هذه المقارنة بعيدة عن أنظار المواطن الجزائري الذي كان يعيش حياة البؤس والشقاء فوق أرضه الخيِّرة المعطاء. وزاد الأمر سوءاً بمحاولات السلطات الاستعمارية تغطية نهبها واستنزافها بالحاق سبب التخلف بأنظمة الجزائر قبل الاستعمار (النظام العثماني - الاسلامي). ولقد اعتاد القائمون على حكم الجزائر أن يبرزوا - في كل مناسبة - ما حققه الاستعمار الافرنسي من إنجازات في البلاد، معددين الطرق الكثيرة التي أنشأوها، والخطوط الحديدية التي نظموها، والمراكز الكهربائية التي شيدوها، وما أقاموه من سدود ومستشفيات ومدارس وكنائس (منارات الحضارة الغربية بزعمهم) والمدن الحديثة ذات العمارات المتعددة الطوابق.

ولم يكن هـذا الأسلوب الدعـائي ليخدع الجـزائـريـين أو يضللهم.. فقد كانوا يعرفون بأن معظم ما يطلق عليه اسم « منجزات » إنما هو لخدمة أهداف الاستعمار الاستيطاني، وتطوير عمليـة النهب الاستعماري للمـوارد والثـروات. وأن المـواطن الجزائري لم يفد من هذه « المنجزات » شيئـاً، وإنما على النقيض أيضاً، فقد جاءت « المنجزات »لتضيف إلى بؤسه بؤساً، وإلى شقائه مزيداً من الشقاء. وقد ترك ذلك آثاره السيئة التي لم تقتصر أضرارها على جيل جزائري واحد.

ومما لا ريب فيه هو أن الجزائر ذات وضع خـاص كبلاد مستعمرة... فالحركة العمرانية بقيت امتيازاً ـ حكراً ـ لـلأقلية الأوروبية، ولمصلحتها. والمدارس، إنما أقيمت للمستوطنين بالدرجة الأولى، ولخدمة أهداف استعمارية محددة وواضحة. كما أن طرق المواصلات إنما أقيمت لتحقيق هدفين مزدوجين أولهما: تسهيل التحركات العسكرية، وثانيهما الوصول إلى مواطن الثروة السطحية والباطنية « المناجم ». كما أن المستشفيات والخدمات الصحية لم تتجاوز فائدتها المستوطنين إلا في حدود ضيقة. وبقي سواد الشعب الجزائري المسلم نهباً للأمية والفقر المدقع، والأمـراض الفتاكة.

ولقد كان هذا التناقض الفاضح بين حياة أقلية مترفة وأكثرية ساحقة محرومة هو الصورة الغريبة والمثيرة لما كانت عليه الجزائر طوال فترة الاستعمار. وإن مستوى المواطنين الجزائريين المسلمين في حياتهم ودخلهم هو الذي يجسد بصورة حقيقية وواقعية الصورة البشعة لقذارة الاستعمار. ولقد تطور الاقتصاد الاستعماري تطوراً سريعاً ومذهلاً، ولكن هذا التطور إنما كان على حساب الملكية الوطنية الجزائرية

باستمرار. فكانت خطة الاستعمار الثابتة هي في تهديم وتدمير ثروات الوطنيين وملكياتهم، من أجل بناء ثروات الاستعمار وأجهزته، وفقاً لقوانين الاستعمار ومبادئه المحكمة.

لقد بقيت « المسألة الاقتصادية » هي العمود الفقري في سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر. فالاقتصاد الجزائري هو السبب الأول الذي دفع فرنسا لاحتلال الجزائر. ولقد كانت سياسة فرنسا الاقتصادية في الجزائر عملية اغتصاب ونهب عبر عنها الجنرال « بيجو » يوم ١٤ ـ أيار ـ مايو ـ ١٨٤٠ بقوله: « **يجب أن يقيم الافرنسيون المستوطنون حيثما وجدت المياه الغزيرة والأراضي الخصبة، بدون أي اهتمام بحق ملكية الأرض التي يجب توزيعها على المستعمرين المستوطنين، وأن تصبح هذه الأراضي الخصبة من أملاكهم الشخصية** ». وكان المارشال « سولت » في السنة ذاتها قد صرح بما يلي: « **إن استيطان الافرنسيين في الجزائر هو العامل الأول للبقاء فيها، وهذا الاستيطان قمين بتهيئة الوسائل خلال سنوات قليلة، للتمكن من الدفاع عن الجزائر، دون أن نستخدم أكثر مما يلزم من قوى البلد ـ فرنسا ـ وأمواله** ».

أ ـ اغتصاب الأرض:

سارت عملية الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، متباطئة أحياناً، متسارعة في أحيان أخرى، وفقاً لما كانت تفرضه الظروف الدولية والجزائرية. وكثيراً ما اغتنمت فرنسا الظروف لتطوير هذه العملية، (مثل أزمة احتلال الألمان ـ بروسيا ـ للألزاس واللورين ـ سنة ١٨٧٠، والأزمة الاقتصادية الايطالية في بداية القرن العشرين).

ولقد بدأ المستوطنون في الاستقرار على أرض السهول الساحلية، ثم لم يلبثوا أن أخذوا في التوغل نحو السهول الداخلية، ونحو مناطق المناجم الصحراوية، ويظهر الجدول التالي تطور الملكيات الأوروبية في الجزائر:

السنة	المساحة بالهكتار	السنة	المساحة بالهكتار	ملاحظات
١٨٥٠	١٥٠,٠٠٠	١٩٢٠	٢,٥٨١,٠٠٠	جدول بياني
١٨٧٠	٧٦٥,٠٠٠	١٩٤٠	٣,٠٤٥,٠٠٠	بتطور الملكيات
١٨٨٠	١,٢٤٥,٠٠٠	١٩٥٤	٣,٠٢٨,٠٠٠	الأوروبية بالجزائر
١٨٩٠	١,٦٣٥,٠٠٠	١٩٦٣	صفر	من سنة ١٨٥٠
١٩٠٠	١,٩١٢,٠٠٠			حتى الاستقلال.
المرجع: جغرافية الجزائر ـ حليمي عبد القادر علي ـ ص١٤٣				

عملت الحكومة الافرنسية ـ وكل حكومة إفرنسية ـ على تشجيع الأفراد الإفرنسيين خاصة، والأفراد الأوروبيين عامة على الهجرة والاستيطان في الجزائر. وكذلك فعلت مع الشركات. وكان من أهم هذه الشركات: «**الجمعية الجزائرية**» التي منحتها سلطة الاحتلال قرابة المائة ألف هكتار في شرق «قسنطينة»، وجمعية «**المقطع والهبرة**» التي تصدقت عليها بأكثر من ٢٥ ألف هكتار من أجود الأراضي الوهرانية سنة ١٨٦٥، و«**شركة جنوه الايطالية**» التي وهبت لها سنة ١٨٦٣ مساحة عشرين ألف هكتار في إقليم سطيف، وطلبت منها مقابل ذلك جلب الإيطاليين إلى الجزائر.

لقد كان القطاع الزراعي هو المورد الرئيسي والتقليدي للبلاد، ولقد عمل النظام الاستعماري على جمع أكثر الأراضي خصباً وتركيزها في قبضة الاقطاع الاستعماري. وأدى ذلك بصورة طبيعية

إلى بؤس المواطن الجزائري كنتيجة حتمية لانتزاع الأراضي الخصبة منه وتقديمها للأوروبي. ونجم عن ذلك تفاوت هائل بين الملاك الأوروبيين والملاك الجزائريين. وهكذا أصبح هناك ٢٥ ألفاً من الملاكين الأوروبيين - من أصل ٨٠٠ ألف نسمة - وهم يملكون (٣,٠٢٨,٠٠٠) هكتاراً من أكثر الأراضي الزراعية خصباً والتي تقدر مساحتها بـ (٢٠,٨٣٠,٠٠٠) هكتاراً. - أي أن كل ملاك من هؤلاء يملك أكثر من ١٢٠ هكتاراً نسبياً منها ٧٥ هكتاراً منتجاً. أما الملاك الجزائريون والبالغ عددهم (٥٣٢) ألفاً من أصل عشرة ملايين. فكانوا يملكون (٧,٦٧٢,٠٠٠) هكتاراً، أي بمعدل ١٤ هكتاراً منها خمسة هكتارات منتجة فقط. أما الباقي وهو (١,٤٠٨,٠٠٠) هكتاراً، فهي معتبرة كأملاك عامة تتصرف بها الادارة الاستعمارية على هواها. ويظهر هنا الموقف بصورته الخطيرة عند معرفة أن هذه الاراضي الزراعية قد خصصت لزراعة المنتجات المعدة للتصدير. في حين كان يجب تخصيصها لتأمين المواد الزراعية التي يحتاجها أبناء البلاد. وأبرز مثال على ذلك هو توزيع الكرمة التي كانت الحافز الأول للمشروع الاستعماري، فهي تشغل مساحة (٢٣٨) ألف هكتار، من أجود الأراضي. وكلها ملك للأوروبيين بدون استثناء. وتنتج هذه الكروم (٢٢,٣١٨,٠٠٠) هكتوليتر من الخمور التي تصدر أربعة أخماسها إلى الخارج[١] وتبلغ قيمة هذه الصادرات (١٤٠) مليون فرنك - بحسب احصاء سنة ١٩٣٥ وهي

---

(١) ورد في جغرافية الجزائر - حليمي عبد القادر - ص ١٩٢. أن مساحة الأراضي المخصصة لزراعة الكرمة هي ٣٦٢ ألف هكتار موزعة كما يلي: (٢٥٠) ألف هكتار في إقليم وهران، و(٨٧) ألف هكتار في إقليم مدينة الجزائر. و(٢٥) ألف هكتار - وهي تشكل (٧) بالمائة من مجموع الأراضي الزراعية - في القطر الجزائري..

السنة التي ارتفع فيها تصدير الخمور الى أعلى مستوياته ثم استمر محافظاً على معدله ـ. أما الحمضيات والتبغ وغيرهما من المنتجات الزراعية الثمينة فهي تشغل (١٧٠) ألف هكتار، يستغل الأوروبيون تسعة أعشارها. وعلاوة على ذلك، فهناك عامل كان يزيد الوضع سوءاً، وهو أن أملاك الأوروبيين كانت محمية ومتصلة، في حين كانت أملاك الوطنيين متفرقة ومتباعدة. فكانت أملاك الأوروبيين منتظمة كالتالي:

١ ـ ملكيات متوسطة: ٢٤,٧٢ بالمائة. ٢ ـ ملكيات كبيرة: ٧٣,٤٨ بالمائة.

في حين كانت ملكيات الوطنيين منتظمة كالتالي:

١ ـ ملكيات صغرى: ٦٠ بالمائة. ٢ ـ ملكيات متوسطة: ٣٨ بالمائة. ٣ ـ ملكيات كبرى: ٢ بالمائة.

وجدير بالذكر أن الزراعة كانت بالنسبة إلى صغار الملاكين الأوروبين ومتوسطيهم، مجرد عمل إضافي (حالة ترف). أما كبار الملاكين، فثمة مستعمرون أوروبيون أو شركات تمتلك ما بين ١٠ و٧٠ ألف هكتار. هذا بالاضافة إلى أن الملاك الأوروبيين هم الذين يستفيدون من القروض والميزات الزراعية الأخرى التي تسهل لهم استخدام الوسائل الزراعية الحديثة، في الوقت الذي يستثمرون أيضاً اليد العاملة الجزائرية بأجور منخفضة ـ بخسة ـ.

وبذلك فرض على الفلاح الجزائري عدم الاضطلاع بدور يذكر في الاقتصاد الوطني، حتى أصبح انتاجه في معظم الحالات لا يكاد يكفي لتأمين متطلباته الأساسية للعيش البسيط، وبقي السواد الأعظم من سكان الريف الجزائري، وهم الذين يشكلون الكتلة الضخمة

للشعب الجزائري، يعيشون في بؤس مدقع أو في بطالة مستمرة أو استغلال مجحف. وتعد هذه الطبقة حوالي (٨٠٠) ألف عائلة ـ أي حوالي أربعة ملايين مواطن جزائري. وكانت الجزائر ـ حتى الثورة ـ تصدر في كل سنة (٨٦) بالمائة من إنتاجها الزراعي الى الخارج، في حين كان معظم السكان الريفيين يعيشون على تغذية ناقصة مستديمة. وقد لا تكون هناك حاجة لاستقراء ملامح « القوانين الاستعمارية » والمبادىء التي تم وضعها طوال فترة الاستعمار؛ والتي أدت إلى هذه النتيجة المأساة.

ويكفي التذكير بذلك القانون الذي أقرته الحكومة الافرنسية خلال مناقشاتها من ٣ ـ ١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٥٦. وتم على أساسه تحديد الشروط التي تتشكل بموجبها ـ أملاك الدولة الافرنسية في الجزائر ـ وكان نص القانون بحرفيته ـ كالتالي: « **إن سكان البلاد الأصليين الذين لا يقدمون البرهان على جدارتهم بملكية الأرض، يعتبرون أمام القانون مستثمرين أو مستأجرين تستطيع السلطات تهجيرهم لتصبح أراضيهم ملكاً للمستوطنين**». وليس من الصعب بعدها على الإدارة الافرنسية التي تمتلك القوة، أن تحدد (من هم غير الجديرين بملكية الأرض من الوطنيين الجزائريين وتعمل على تهجيرهم نحو الصحراء المقفرة).

ب ـ الموقف السكاني ـ الديموغرافي

لقد تداخلت مجموعة من العوامل لتشكل في الجزائر موقفاً سكانياً ـ ديموغرافياً ـ شاذاً وغريباً. ومن أبرز هذه العوامل: ١ً ـ اغتصاب

الأرض الجزائرية الخصبة من أصحابها الشرعيين. ٢ً ـ فتح باب الهجرة أمام الأوروبيين ومنحهم امتيازات كبيرة على حساب المواطنين الجزائريين. ٣ً ـ عدم توافر مجالات العمل الزراعي أو الصناعي، واضطرار أبناء الريف (الجزائريين المسلمين) للزحف نحو المدن، أو حق الهجرة من البلاد. ٤ً ـ التفجر السكاني في الجزائر، والذي يعتبر استجابة طبيعية ومضادة لمحاولات القضاء على العنصر المسلم (عَربي وبربري). ويشير الاحصاء الرسمي الأول الذي جرى في الجزائر في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤٨، وهو الأول من نوعه الذي جرى في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، الى أن عدد سكان البلاد بلغ (٨,٦٨٢,٠٠٠) نسمة، منهم (٧,٧٠٨,٠٠٠) من الجزائريين و(٩٧٤) ألفاً من الأوروبيين. وأشارت إحصاءات عام ١٩٥٤ الرسمية إلى أن عدد السكان بلغ (٩,٥٢٨,٠٠٠) منهم (٨,٤٨٦,٠٠٠) من الجزائريين و(١,٠٤٢,٠٠٠) من الأوروبيين.

ولكن المفهوم أن عدد السكان الجزائريين قد خفض في هذا الاحصاء لأسباب سياسية. ويحتشد معظم السكان في المنطقة الساحلية الخصبة التي تؤلف نحواً من عشر مساحة البلاد فحسب. وكانت أعلى نسبة في كثافة السكان في مقاطعة الجزائر الوسطى، بينما أخفضها في مقاطعة وهران الغربية ولا تتجاوز نسبة كثافة السكان في مناطق الصحراء الجنوبية الشاسعة شخصاً واحداً لكل ميل مربع. وتبلغ نسبة الجزائريين للأوروبيين في منطقة قسنطينة الشرقية أعلى النسب إذا ما أمكن مقارنتها بالمقاطعات الأخرى، إذ تبلغ نسبة الجزائرية الجبلية، واذا ما وضع بالحسبان أيضاً تقاليد أصالة الثورة في قسنطينة (من أيام

أحمد باي قسنطينة وحتى الشيخ عبد الحميد بن باديس) فسيظهر بوضوح سبب اختيار الجزائر الشرقية لتكون القاعدة الأولى للثورة، أما في منطقة وهران التي ظلت هادئة عدة أشهر بعد نشوب الثورة؛ فتبلغ نسبة الجزائريين إلى الأوروبيين نسبة الخمسة إلى الواحد. وعلى كل حال، فقد يكون من المناسب ملاحظة تطور الانفجار السكاني قبل مرحلة الثورة، وهو الانفجار الذي كان عاملاً مساعداً في انفجار الثورة، وتطورها، وإمدادها بالقدرة القتالية:

السنة	عدد السكان	السنة	عدد السكان	ملاحظات
١٨٥٦	٢,٣٠٧,٠٤٩	١٩١١	٤,٧١١,٢٧٦	١ـ المرجع: جغرافية الجزائر-
١٨٦١	٢,٧٣٢,٨٥١	١٩٢١	٤,٨٩٠,٧٥٦	حليمي عبدالقادر علي-
١٨٦٦	٢,٦٥٢,٠٧٢	١٩٢٦	٥,١١٥,٩١٨	ص ١٢٧
١٨٧٢	٢,٤٦٢,٩٣٦	١٩٣١	٥,٥٤٨,٢٣٦	٢ـ إن التراجع السكاني
١٨٨١	٢,٨٤٢,٤٩٧	١٩٣٦	٦,١٦٠,٩٣٠	في سنة ١٨٦٦ قد نجم
١٨٨٦	٣,٢٦٤,٨٧٩	١٩٤٨	٧,٦١١,٩٣٠	عن الأوبئة.
١٨٩١	٣,٥٥٩,٦٨٦	١٩٥٤	٨,٣٦٤,٦٥٢	٣ـ إن التراجع السكاني في سنة
١٨٩٦	٣,٧٦٤,٠٧٢	١٩٦٠	٩,٣٠٠,٠٠٠	١٨٧٢ قد جاء نتيجة فشل ثورة
١٩٠١	٤,٠٦٣,٠٦٠	١٩٦٦	١٢,١٠١,٩٩٤	المقراني والحداد، وما حدث من
١٩٠٦	٤,٤٤٧,١٤٩			هجرة إجماعية. وأعمال
				إبادة ضد الجزائريين

لقد ترافق الانفجار السكاني خلال المرحلة التي سبقت الثورة، بهجرة واسعة النطاق، سواء داخل الجزائر ذاتها- من الريف إلى المدينة، أو من الجزائر إلى فرنسا، وعلى الرغم من بقاء الجزائر بلداً زراعياً بالدرجة الأولى، إلا أن عدد سكان المدن بلغ في عام ١٩٥٤، أربعة أضعاف ما كان عليه هذا العدد في عام ١٨٨٦. في حين لم يتزايد

عدد السكان في المناطق الريفية خلال المدة نفسها إلا بنسبة الضعف.

وقد وجد هذا الاتجاه في الانتقال من حياة الأرياف إلى حياة المدن، بين الجزائريين والأوروبيين على حد سواء، لكنه كان أكثر وضوحاً بين الأوروبيين الذين أصبح ثمانون بالمائة منهم يعيشون في المدن في عام ١٩٥٤، بينما كان ٦٤ في المائة منهم يعيشون فيها في عام ١٨٨٦. وقد اتجه الجزائريون أيضاً في القرن الماضي إلى المدن. وكان سبعة في المائة من الجزائريين يعيشون في المدن في عام ١٨٨٦، بينما ارتفعت هذه النسبة إلى ثمانية عشر في المائة في عام ١٩٥٤. وليس بالإمكان القول أن جميع هؤلاء الجزائريين يساهمون في حياة المدن مثلهم مثل الأوروبيين. فبعضهم أقام له بيوتاً من الصفيح هي أشبه بالأكواخ منها بالمنازل الشرعية. وهكذا، فقد كانت الحياة الحضرية في عهد الاستعمار من نصيب الأوروبيين بالجزائر، في حين بقيت الحياة البدوية والريفية من نصيب المواطنين الجزائريين وفقاً لما يبرزه الجدول التالي:

السنة	المسلمون	غير المسلمين	المجموع	نسبة المسلمين في المدن
١٨٨٦	٢٤٠,٠٠٠	٣٢٣,٠٠٠	٥٦٣,٠٠٠	٪ ٦,٩
١٩٠٦	٣٤٢,٠٠٠	٤٤١,٠٠٠	٧٨٣,٠٠٠	٪ ٨,٥
١٩٢٦	٥٠٨,٠٠٠	٥٩٢,٠٠٠	١,١٠٠,٠٠٠	٪ ١١,٥
١٩٤٨	١,١٢٩,٠٠٠	٧٠٩,٠٠٠	١,٨٣٨,٠٠٠	٪ ١٦,٤
١٩٥٤	١,٦٢٤,٠٠٠	٧٩٢,٠٠٠	٢,٤١٦,٠٠٠	٪ ٢٥
١٩٦٠	٢,٠٧٢,٠٠٠	٨٥٣,٠٠٠	٢,٩٧٩,٠٠٠	٪ ٣٠

وإذا ما تم الأخذ بنموذج لهذا التطور في المدن، ولتكن مدينة

الجزائر ـ العاصمة ـ على سبيل المثال، فسيظهر بأن عدد سكانها في سنة ١٨٨٦ لم يكن يتجاوز (٦٥) ألف نسمة منهم (٥٢) ألف أوروبي والباقون جزائريون. وفي سنة ١٩٠٦، ارتفع عدد سكان مدينة الجزائر إلى (١٧٤) ألفاً، منهم (١٣٤) ألف أوروبي، ثم وصل هذا العدد في سنة ١٩٥٤ إلى (٥٧٠) ألفاً منهم (١٧٢) ألف أوروبي، ثم إلى المليون بعد الاستقلال، منهم أقل من (٥٠) ألف أوروبي. ولعل تأثير هجرة الجزائريين إلى المدن الرئيسية في بلادهم من الأمور المثيرة.

وعلى الرغم من أن عدد الجزائريين كان متفوقاً دائماً على الأوروبيين في مدينة قسنطينة، إلا أن هذا التفوق لم يكن يتجاوز الستة آلاف في عام ١٨٨٦، بينما بلغ في عام ١٩٥٤ـ اثنين وستين ألفاًـ وفي عنابة، المدينة الرئيسية الثانية في شرق الجزائر وذات الميناء الهام، كان عدد الأوروبيين متفوقاً على الجزائريين حتى عام ١٩٤٨ فقط، ثم تفوق عدد المسلمين الجزائريين. وبقيت وهران هي المدينة الوحيدة التي كان الأوروبيون يتفوقون في عددهم فيها على المسلمين، وإن كان عدد هؤلاء قد ارتفع بنسبة عالية خلال المرحلة التي سبقت الثورة. وهكذا كان عدد الأوروبيين متفوقاً على عدد المسلمين في ثلاث أو أربع من المدن الرئيسية في الجزائر عام ١٨٨٦. ولكن هذا الوضع انعكس تماماً في عام ١٩٥٤. ولم يحتفظ الأوروبيون بتفوقهم العددي إلا في مدينة وهران فقط. ولقد كان لهذه الظاهرة أهميتها الكبرى خلال مرحلة الصراع الحاسمة، وخلال المحاولات التي لجأت إليها فرنسا لتقسيم الجزائرـ على نحو ما تم في فلسطينـ.

وتبقى الظاهرة الأكثر أهمية في التركيب السكاني ـ الديموغرافي ـ

للجزائر، هي في فتوة مجتمعها الشاب. ففي عام ١٩٥٤، لم تكن نسبة من يزيد عمرهم على الستين، بأكثر من خمسة بالمائة. وكان هذا المجتمع يضم نسبة خمسين بالمائة من الذين تنقص أعمارهم عن العشرين عاما. أما النسبة الباقية وهي خمسة وأربعون بالمائة فتشير إلى من تتراوح أعمارهم بين العشرين والستين. وكانت نسبة الزيادة الطبيعية للسكان عند الأوروبيين واحدا بالمائة في السنة ـ وهي ناجمة عن زيادة ثابتة نسبيا في معدل المواليد اتخذت هذا الشكل منذ عام ١٩٣٩، وهبوط ثابت في معدل الوفيات. وبينما يميل تركيب السكان بين الأوروبيين في الجزائر الى الفتوة ـ الى حد ما ـ فإن مسلمي الجزائر يعتبرون من أكثر الشعوب فتوة، وأكثرها تكاثرا في العالم. ففي عام ١٩٥٤، كان معدل زيادة الجزائريين المسلمين في حدود اثنين ونصف بالمائة.

وقد اعتبر هذا التزايد السريع بعد الحرب العالمية الثانية، في طليعة العوامل الاقتصادية التي سببت أزمة حادة أدت إلى إفقار الفلاح الجزائري إلى حد أكبر مما كان عليه من الفقر في عام ١٩٣٩. ووجد الفلاح الجزائري المسلم نفسه محصوراً بين موارده المحدودة جداً، وكثرة عدد الأفواه التي يجب تأمين الطعام لها. وكان لا بد من أن يتجه القادرون من الشباب نحو باب الهجرة إلى فرنسا بحثاً عن المأوى والطعام، وهكذا بلغ عدد الجزائريين المهاجرين إلى فرنسا سنة ١٩٤٨ نحواً من مائة وستين ألفاً. ثم ارتفع هذا الرقم الى نحو أربعمائة ألف مع بداية الثورة. وقد استطاع هؤلاء المهاجرون الجزائريون ـ تأمين الطعام لحوالي مليونين من مواطنيهم، بإرسال أجور عملهم إلى أهلهم وذويهم، ولو كان ذلك على حساب حرمانهم

هم أنفسهم من كثير من ضرورات الحياة ومتطلباتها.

كما أن هذا التفجر السكاني قد أدى الى زيادة عدد العاطلين عن العمل - في الجزائر نفسها، وبالتالي إلى زيادة التذمر، وإلى توافر عدد كبير من الرجال القادرين على الانضمام إلى جيش الثورة ودعمه.

وعندما انفجرت الثورة، أجرت السلطات الإفرنسية بحثاً إحصائياً، كشف عن وجود أربعة وخمسين ألف عامل عاطل عن العمل. ولكن هذا التقدير لم يكشف عن حقيقة مدى البطالة، أو نصف البطالة بين مسلمي الجزائر. حيث كان عدد العاطلين في القطاع الزراعي يتجاوز ثمانمائة ألف.

كما أن عدد العاطلين وأنصاف العاطلين في جميع القطاعات قد تجاوز تسعمائة ألف من مجموع ثلاثة ملايين ونصف المليون، أي ما يعادل ربع المجموع الإجمالي للقوة العاملة. ولم يكن فقر الغالبية العظمى للجزائريين ناجماً عن النسبة العالية للعاطلين عن العمل بصورة دائمة فحسب، بل عن تركيز الأراضي والثروة الصناعية في أيدي المستوطنين أيضاً، بالإضافة إلى التوزيع غير العادل في فرض الضرائب. وبالإضافة أيضاً إلى الأجور المنخفضة - والمجحفة - التي كانت تقدم لمسلمي الجزائر لقاء أعمالهم.

وعلى سبيل المثال، فقد أجريت دراسة (في حزيران - يونيو - ١٩٥٥) أبرزت أن معدل الدخل الفردي عند أغلبية الجزائريين المسلمين، لا تزيد على (٤٥) دولاراً في السنة. وهناك نسبة ضئيلة من مسلمي الجزائر لا تزيد على الخمسين ألفاً يبلغ معدل دخل الفرد منها (٥٠٢) دولار في السنة. هذا في حين كان متوسط دخل الفرد

الأوروبي لا يقل عن (٢٤٠) دولار في السنة. وكان هناك (١٥) ألفاً من الأوروبيـين يزيد دخل الفرد فيهم على (٣١٨١) دولاراً في السنة. أما في مجال التشريع المجحف في فرض الضرائب؛ فيكفي القول بأن الضريبة التي كانت مفروضة على المسلم الجزائري في المدينة، والذي لا يتجاوز دخله (١٢١) دولارا في السنة، قد بلغت (٤, ٢٠) بالمائة ـ اعتبارا من سنة ١٩٥١ وما بعدها ـ وهي عين النسبة المفروضة على الأوروبي من أبناء الطبقة الوسطى الذي يبلغ دخله (٥٠٢) دولاراً في السنة.

ج ـ النهب الاستعماري

اعتمد النهب الاستعماري ـ على ما هو معروف ـ على مبدئين أساسيين ١ ـ الحصول على المواد الأولية التي تفتقر اليها الصناعة الغربية، بدون أي ثمن، او في حدود الحد الأدنى من التكاليف. ٢ ـ تصنيع هذه المواد الأولية وإعادة تصديرها الى البلاد التي يتم استعمارها ـ فتح الأسواق في وجه الصناعات الغربية. وكان من المتوقع على هذا الأساس أن تعمل الادارة الاستعمارية في الجزائر على تدمير الصناعات اليدوية القائمة، وعدم إفساح المجال لها للتطور. وكان في الجزائر صناعات تقليدية بسيطة ورائعة توارثها الأبناء عن الأجداد جيلاً بعد جيل، وهذه الصناعات تقوم على الورش الصغيرة، أو في المنازل، وتعتمد في الغالب على اليد العاملة الماهرة والابداع الفردي، وهي إلى ذلك لا تتطلب رؤوس أموال ضخمة، ولا إلى شركات لتموينها، مثل صناعة الفخار، والزرابي، والسجاد، والحبال، والحصر، والأدوات المنزلية، والحلي، والصناعات الخشبية، ودباغة الجلود وصناعتها الخ...

ولم يكن باستطاعة هذه الصناعات أن تصمد في وجه الصناعات التي اشتهرت باريس في إنتاجها، لا سيما وأن أسعار هذه الصناعات الغربية ـ الافرنسية ـ طرحت لتكون منافسة لأسعار الصناعات التقليدية. فأخذت هذه الصناعات في الانحدار والتقهقر ومن ثم الانقراض. وتخلى الصناع عن ورشاتهم ومحلاتهم وأغلقوها. فزالت الأسواق الوطنية الجميلة، لتحل محلها مراكز البيع العصرية التي يديرها الأوروبيون.

وقد شكل القضاء على الصناعة الوطنية التقليدية عاملاً إضافياً زاد من صعوبة الأزمة الاقتصادية التي فرضها النظام الاستعماري على الوطن الجزائري والمواطن الجزائري. ولم تحاول الإدارة الاستعمارية بالمقابل إقامة صناعة حديثة في الجزائر، بالرغم من توافر المواد الأولية (الحديد، والفوسفات، والجبس، والفحم، والطاقة الهيدروليكية ـ ثم الطاقة البترولية في الفترة الأخيرة)، وحتى الصناعات الغذائية احتكرتها فرنسا، ولم تسمح باقامتها في الجزائر. وعندما وقعت الحرب العالمية الثانية، شعرت فرنسا بالحاجة لإقامة صناعات في مستعمراتها لدعم مجهودها الحربي، فأقامت في الجزائر بعض المصانع الصغرى التابعة للمؤسسات الصناعية الضخمة في فرنسا، وذلك حتى لا يكون هناك تناقض مع المبدأ الذي تبنته فرنسا وهو: «أن فتح مصنع بالجزائر معناه إغلاق آخر في فرنسا والقضاء بالتالي على الاقتصاد الافرنسي» فكانت المصانع التي أقيمت، في معظمها، فروعاً للمعامل الافرنسية. ولقيت إقامة هذه الصناعات تشجيعاً حيث يتوافر في الجزائر السوق المربحة، والمواد الأولية واليد العاملة الرخيصة.

وارتفع بذلك عدد العمال حتى (٣٨) ألف عامل.

وكان من أبرز الصناعات التي تمت إقامتها صناعات: النسيج، والمواد الكيماوية، والفلزات، والخشب، والفلين، والجلود، والمواد الغذائية، وتكرير البترول، والمعادن. وأقيم فرع لصناعات السيارات (رينو) بالقرب من الجزائر العاصمة ـ يعمل فيه ٥٠٠ عامل ـ وينتج سنوياً (١٢) ألف سيارة. وهو مصنع تجميع. بالإضافة إلى مصنع « بيرلييه » شرق الجزائر العاصمة ويعمل فيه ٦٠٠ عامل. وكفاءته الإنتاجية ١٨٠٠ سيارة سنوياً. ولم تكن إقامة مثل هذه الصناعات في كل الأحوال متناقضة مع مبادىء النهب الاستعماري،فبقي الحصول على المواد الأولية، وتصديرها في حالتها الخام الى فرنسا، هو الأساس في تعامل فرنسا مع الجزائر، وبقيت المواد الأولية تصدر بكاملها تقريباً الى فرنسا. وكانت الشركات التي تقوم باستخراج المعادن هي شركات افرنسية، وها هو نموذج عن استخراج المعادن من المناجم الجزائرية والمصدرة الى فرنسا ـ وفقاً للإحصاءات الرسمية لتصدير المعادن في سنة ١٩٥٣:

الحديد: الإنتاج (٣,٣٣٢,٠٠٠) طن يصدر منها (٣,٠٣١,٠٠٠) طن.

الرصاص: الإنتاج (١١,٨٠٠) طن يصدر منها (٩١٠٠) طن.

الفوسفات: الإنتاج (٧٠٢,٦٠٠) طن يصدر منها (٥٦٢,٠٠٠) طن.

الفحم: الإنتاج (٢٩٥,٠٠٠) طن يصدر منها (٩٠٠٠) طن.

تجدر الإشارة إلى أن إقامة هذه المصانع وتطويرها قد اصطدم بمقاومة المستوطنين ومعارضتهم. ومثال ذلك رد فعل منتجي الشوندر

السكري من الافرنسيين ضد إقامة مصنع للسكر في الجزائر. وكان من نتيجة هذه المقاومة بقاء حركة التصنيع في طور بدائي جداً. وبقيت البلاد زراعية بالدرجة الأولى، ولم تتجاوز الصناعة الجزائرية حتى عشية الثورة أكثر من (٢٨) بالمائة من الإنتاج العام. وكانت بأوضاعها تلك لا تستطيع أن تستوعب أكثر من ٧ بالمائة من اليد العاملة الوطنية. وبقيت الجزائر بلاداً متخلفة اقتصادياً. ويذكر أن بعض الشركات الدولية الكبرى قد حاولت إقامة مصانع لها في الجزائر ـ مثل شركة سولفاي لإنتاج المواد الكيميائية ـ غير أن قبضة المعمرين القوية نجحت في إحباط هذه المحاولات وذلك «حتى لا تعمل هذه الصناعات على انتزاع قسم من اليد العاملة التي يستغلونها بثمن بخس. وحتى لا تتشكل طبقة العمال ـ البروليتاريا ـ وتنتظم، الأمر الذي يتناقض مع مصالحهم الاستعمارية».

* * *

وتحكمت قبضة فرنسا الاستعمارية بالتجارة بمثل تحكمها بالزراعة والصناعة، وكانت معظم الصادرات الجزائرية من المنتجات التي يحتاجها النظام الاستعماري من المواد الأولية. أما الواردات فكان (٨٠) بالمائة منها من المواد المصنعة، والباقي من المواد الغذائية (مثل القهوة والشاي والسكر) وهي المواد التي تستهلك على نطاق واسع في البلاد المتخلفة غذائياً، وتشكل هذه المواد نسبة (٥٩) بالمائة مما يستهلكه الجزائريون. وتشير طبيعة هذا التبادل الى أن الصادرات الجزائرية تفوق بحجمها الواردات. أما من ناحية القيمة، فالأمر على النقيض من ذلك. وها هي الإحصائية الرسمية التي نشرت سنة ١٩٥٣ والتي تؤكد هذه الحقيقة:

صادرات الجزائر (٦,٦٧١,١٩١) طن قيمتها (١٣٨,٨٢٠) مليار فرنك فرنسي.

ما تستورده الجزائر (٢,٦٦٥,٦١٧) طن قيمتها (٢٠٢,٦٩٤) مليار فرنك فرنسي.

أما في سنة ١٩٥٩، فكان الميزان التجاري كما يلي:

صادرات الجزائر (٩,٢٦٠,٠٠٠) طن قيمتها (١٨٠,٤٧٠) مليار فرنك فرنسي (قديم)

ما تستورده الجزائر (٥,٤٦٦,٠٠٠) طن قيمتها (٥٦٣,١١٠) مليار فرنك فرنسي (قديم).

ويظهر بذلك أن العجز في سنة ١٩٥٩ - قد وصل حتى (٣٨٢,٦٤٠) مليار فرنك (قديم). وكانت أعباء هذا العجز ونتائجه تقع على عاتق المسلم الجزائري. ويجب أن يضاف الى ذلك أن التنظيم التجاري الذي فرضته فرنسا على الجزائر، كان يحتم نقل جميع هذه البضائع على البواخر الإفرنسية، الأمر الذي كان يزيد من الأرباح الافرنسية، ويضاعف من الكسب لمصلحة الاقتصاد الاستعماري.

كما كان الاتحاد الجمركي مع فرنسا يفرض على الجزائر العزلة التامة عن العالم أجمع، ويستبعد كل منافسة أجنبية. وبقي المواطنون الجزائريون المسلمون معزولون عن العمل في المجالات التجارية. فكان كل تبادل تجاري يتم مع الخارج عن طريق العملاء الأوروبيين (الوسطاء). وكان من نتيجة هذا التنظيم الاقتصادي للجزائر زيادة الأعباء على المواطن الجزائري (المستهلك).

لقد احتكرت الإدارة الإفرنسية تجارة الجملة (التصدير والاستيراد) وأسندتها الى اليهود والإفرنسيين، وحاول بعض

المسلمين الجزائريين اقتحام هذا المجال، غير أنهم صدموا بمقاومة الإدارة الإفرنسية من جهة ومقاومة الوسطاء (اليهود والإفرنسيين) من جهة ثانية. وكانت مقاومة الإدارة الإفرنسية عن طريق رفض العملات - القطع النادر - التي طلبها المسلمون لاستيراد البضائع الأجنبية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت عملية التصدير والاستيراد تتطلب رؤوس أموال ضخمة، وكانت المصارف - البنوك - في قبضة الإفرنسيين.

وهذا ما كان يمنع المسلمين من ممارسة الأعمال التجارية الخارجية - إلا إذا وقعوا في قبضة الرأسماليين من اليهود والافرنسيين، وبما أن عدد الأوروبيين بقي يتزايد بصورة مستمرة، فقد أخذ عدد من هؤلاء أيضاً يمارس تجارة التجزئة (المفرق). وباتوا وهم يملكون أجمل الحوانيت في المدن والقرى الجزائرية الصغيرة، وبات أكبر تاجر جزائري لا تتعدى إمكانياته المادية ورخصة عمله الحكومية فتح دكان لبيع المواد التجارية بالجملة أو المفرق. وبقيت القروض ورخص الاستيراد والتصدير مرفوضة للصناع والتجار المسلمين من الجزائريين الذين لا يبرهنون على ولائهم للاستعمار، وهي ممنوحة لأولئك الذين يخنعون للذل والعبودية.

وبموجب سياسة الاستغلال هذه، يتوجب على الجزائري الذي يرغب في فتح دكان أو مطعم أو مقهى أن يسير حسب تعاليم الشرطة الإفرنسية - البوليس - الذي يعد المرجع الأول والأخير لدى الإدارة الاستعمارية التي تمنح الرخص الرسمية. فاذا ما تبين أن المتقدم بطلب الرخصة يتمتع بآراء وطنية، أو ظهرت آراؤه هذه بعد أن يكون قد حصل على الرخصة، فسرعان ما تسحب الرخصة ويغلق محله،

ويسجل اسمه بالمداد الأحمر، علامة العصيان، ونذيراً لما سيلاقيه هو وعائلته من تعسف واضطهاد.

وبقيت الضرائب الفادحة، وإغلاق المقاهي الاسلامية، وتشجيع الصناعات المماثلة التي استطاع المسلمون أن يبرزوا فيها (مثال ذلك: الكوكاكولا ضد مصانع الليموناضة الجزائرية). واستصفاء الأموال، والمحاكمات والمصادرات وعزل العمال والموظفين المسلمين المتهمين بجريمة (الغيرة الوطنية) كل هذه وسائل عادية في جملة الوسائل الاستعمارية لقمع الشعب الجزائري من الناحية الاقتصادية.

أما فكرة إنشاء المصانع والشركات، أو تعاطي تجارة كبرى كالتصدير والاستيراد، فيجب على الجزائري أن يستبعدها عن تفكيره، لأنه من المحال عليه بلوغها. ولم يكن ذلك غريباً بعد أن أصبحت هناك حفنة من المعمرين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، وهم يتحكمون بكل اقتصاديات الجزائر، من أمثال « هنري بورجو » و« جورج بلانشات » و« لوران شيامنينو » الذين أحكموا سيطرتهم على كافة المصانع والشركات والبنوك والمناجم، واستولوا على أطيب الأراضي الزراعية في الجزائر وأخصبها.

د ـ البترول والغاز الطبيعي

لقد ظهرت مشكلة الطاقة الممثلة (بالطاقة البترولية بالدرجة الأولى) في ظروف حرب العاشر من رمضان (تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٧٣)، وأخذت أبعادها الحادة والخطيرة. غير أن جذور هذه المشكلة تمتد في الواقع إلى أيام الحرب العالمية الثانية. وقد كان لهذه المشكلة أبعادها الاقتصادية الهامة والحاسمة في التأثير على مجموعة

المواقف خلال مسيرة الصراع الافرنسي ـ الجزائري، وحتى خلال المرحلة التالية لحرب التحرير. وقد كان هذا التأثير نتيجة لما تم اكتشافه في الجنوب الجزائري وبقية مناطق الصحراء من الثروة البترولية والغاز الطبيعي.

ذلك أن اكتشاف البترول في الجزائر، أحدث تغييراً واضحاً في مجموع الأوضاع الاقتصادية للجزائر خاصة، وأقطار المغرب العربي الاسلامي بصورة عامة. وعلى الرغم من أن عمليات التنقيب خلال مرحلة ما قبل الثورة، لم تكن إلا عمليات جزئية ومحدودة في المناطق الصحراوية، الا أن الأبحاث قد أكدت في تلك الفترة أن الإنتاج السنوي سيصل حتى (١٣) مليون طن في العام ١٩٦٠، وأن هذا الإنتاج سيرتفع حتى (٢٥) مليون طن في العام ١٩٧٠. وظهر أن هذه الثروة الكامنة ستفتح آفاقاً جديدة ومجالات رحبة أمام المستقبل الاقتصادي للجزائر. وتستطيع الجزائر بنتيجة ذلك احتلال مركز ممتاز يتيح لها أن تتصنع، وأن تنهض بسرعة لرفع مستواها الاقتصادي الأمر الذي سيساعدها على تجاوز مرحلة التخلف التي جهدت فرنسا طويلاً لتكوينها خلال ليل الاستعمار.

لقد أدى ذلك الى زيادة تمسك فرنسا بمواقعها في الجزائر، وزاد من ضراوتها (أو استماتتها) للاحتفاظ بالجزائر وبترولها، ما كان يحدث من تحولات مستمرة، واضطرابات متوقعة في السوق البترولي للعالم العربي (الذي ما زالوا يطلقون عليه اسم الشرق الأوسط) نتيجة التطور المستمر في الصراع العربي ـ الاسرائيلي. وبالاضافة الى ذلك، فقد كان من المتوقع أن ينفرد البترول الجزائري والغاز الطبيعي المستخرج من الجزائر في ميزاتها الخاصة، وهي قربها من السوق

الاستهلاكي في الغرب ـ المستورد الأول في العالم للطاقة البترولية .

ولقد وطدت فرنسا نفسها، وعزمت عزمها، على بذل المستطاع، وأكثر مما هو مستطاع، من أجل الاحتفاظ ببترول الجزائر واستثماره ونهبه . . . ولهذا أعلنت أن الصحراء الكبرى هي أرض فرنسية منفصلة عن الجزائر، وأقامت للصحراء حدودها المصطنعة، وشكلت لها حكومة خاصة ووزارة جديدة. وعملت في الوقت ذاته على تصعيد الصراع في حربها الشاملة ضد شعب الجزائر بهدف تأمين طريق بترولي، بينما راحت تبحث عن مخارج سياسية تبادلية تضمن لها إحكام قبضتها على الجزائر وعلى أقطار المغرب العربي الاسلامي كافة .

وقد ركزت فرنسا جهدها أيضاً ـ في إطار صراعها السياسي ـ على مضاعفة اتصالاتها بالشركات البترولية العالمية، بهدف إثارة اهتمام هذه الشركات ببترول الجزائر، ومحاولة إغراء رؤوس الأموال الأجنبية التي تعمل في التنقيب عن هذا البترول. وكانت فرنسا تعرف أن مشاريع البترول الجزائري تتطلب إمكانات مالية وتقنية تزيد كثيراً على ما كان متوافراً لها في تلك الفترات. ولهذا فقد أثارت اهتمام الدول الأوروبية الأخرى ـ ولا سيما دول السوق الأوروبية المشتركة ـ بهذا البترول، وعادت إلى طرح مشاريعها الاستعمارية القديمة بأثواب جديدة عن طريق ما أطلقت عليه اسم « إقامة المنظمة الأوروبية ـ الأفريقية ـ أوروفريقيا » مع إعطاء هذه المنظمة المقترحة صيغة تجميلية مبتكرة. غير أن الجزائر الثائرة لم تقف جامدة تجاه هذا التحرك الإفرنسي المكشوف لها في وسائله وأهدافه. فعملت على إحباط كافة المشاريع المطروحة .

وجدير بالذكر أن « لجنة التنسيق والتنفيذ » التابعة لجبهة التحرير

الوطني الجزائري قد تنبهت منذ البداية لهذه الأخطار الجديدة المحدقة بالبلاد. فعملت على تحذير جميع البلدان المؤيدة لأطماع فرنسا الاستعمارية أو المناهضة لها من مغبة الاستجابة للمشاريع الافرنسية.

وعندما أعلنت فرنسا في سنة ١٩٥٧ عن إصدارها لقانون استثمار البترول. ردت لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية بما يلي: « إن حق استثمار البترول هو أمر منوط بحكومة وطنية جزائرية ذات سيادة. وعلى هذا فإن الجزائر لن تكون ملزمة بأية معاهدة أو أي اتفاق أو التزام قامت به فرنسا أو تقوم به باسم الجزائر ». وفي الوقت ذاته قام جيش التحرير الوطني الجزائري بشن مجموعة من المعارك الظافرة في الصحراء، وضاعف من حملاته على الحاميات الافرنسية فيها، وبهذا أصبح من المحال متابعة نقل البترول بواسطة الحاملات او الناقلات الخاصة، والتي أرادت فرنسا من خلالها إعطاء عملية النقل قيمة رمزية.

أمام هذا الموقف، لجأت فرنسا الى استخدام سلاح جديد ـ قديم ـ وهو سلاح التفرقة بين **أقطار** المغرب العربي ـ **الإسلامي؛ ففي تلك** الفترة، عقدت لجنة « التنسيق والتنفيذ الجزائرية» « **مؤتمر طنجة** » **مع** ممثلي المغرب وتونس، بهدف « **تشكيل الجبهة المغربية** » **لمقاومة** المخططات الإفرنسية وتنسيق الجهد العربي ضدها. **فما كان من فرنسا** إلا أن عقدت اتفاقاً مع تونس (سنة **١٩٥٧**) **يسمح لشركة فرنسية** بمد أنابيب البترول من « أدجيليه » **في** الجزائر الى البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي التونسية، وأقدمت تونس على عقد هذا الاتفاق مدفوعة بقلق غامض على مصير وحدة **أقطار** المغرب العربي ـ الإسلامي، ولاعتبارات أخرى تتعلق بمستقبل هذا المغرب. وكان رد

الفعل المباشر والفوري « للجنة التنسيق والتنفيذ » إصدار بيان أعلنت فيه: « **بأنها تعتبر توقيع هذه الاتفاقية خرقاً لمقررات مؤتمر طنجة، واعترافاً ضمنياً من تونس بحق فرنسا في بترول الجزائر. وأن الشعب الجزائري لن يقبل بأن تغذى الحرب التي تشن ضده لمدة طويلة أو قصيرة، ببترول ينقل عبر أراضي بلاد المغرب. كما أن مد الأنابيب المتفق عليه، يفقد الشعب الجزائري الفوائد المرجوة من معركته في الصحراء. وهي المعركة التي يخوضها آلاف المواطنين الجزائريين... إن الاتفاقات الحقيقية لا يمكن أن تبرم الا في مغرب متحرر، وبعد أن تبنى في كل بلد سياسة اقتصادية موحدة، أما مساهمة الدول الأجنبية في استثمار هذا البترول، فليست أمراً ثانوياً، بل أولياً لا مناص منه، بيد أن هذه المساهمة لا يمكن أن تتم الا مع مراعاة المصالح المغربية. وعلى أساس الحرية التامة بين المتعاقدين، والحقوق المشروعة للطرفين المتعاقدين** ». وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة التونسية أنها لن تسمح بضخ البترول الجزائري إلا بعد انتهاء الحرب الجزائرية-الإفرنسية. وأمكن تجاوز الأزمة في ظروف الحرب. لتبرز بعد ذلك عند عقد اتفاقية « ايفيان » ولتبرز بشكل أخطر في « مشكلة الصحراء ».

هـ - الموقف التعلمي (الثقافي)

كان السلاح الثقافي هو السلاح الرئيسي الذي استخدمته فرنسا لتدمير الجزائر، وفصلها عن أصالتها وماضيها وتراثها الحضاري ومستقبلها، وبالتالي عزلها عن محيطها الاسلامي - العربي. فانتشر في

الجزائر، وعلى نطاق واسع، أدب استعماري هدفه تمجيد فرنسا وعظمتها وتفوقها وما تقيمه من مشاريع في الجزائر (لتحضيرها وتمدينها وإخراجها من الظلمات الى النور). واذا ما تمت العودة الى ما تم طرحه باسم «التقاليد الثقافية الإفرنسية» فسيظهر أن فرنسا قد خلقت خرافة باسم «البعثات الثقافية الاستعمارية». غير أن تجربة أكثر من قرن قد برهنت على أن الوجود الاستعماري في الجزائر كان سبباً في تقهقر الجزائر تعليمياً وثقافياً، وتوقفها عن كل تطوير طبيعي للثقافة الجزائرية الأصيلة. ولم يكن حملة لواء تلك «البعثات الثقافية الاستعمارية» في الواقع سوى نفر من المهاجرين المضطربين فكرياً، والفقراء عقلياً،والمفلسين مادياً. جاءوا من وراء البحار يدفعهم حب المغامرة والرغبة في جمع المال، فكان همهم الوحيد وهم يهبطون أرضاً تم إخضاعهم حديثاً بقوة السلاح، أن يعيشوا بيسر وسهولة، وأن يجمعوا بسرعة ثروة كافية. ولقد وجد هذا النفر نفسه حيال الشعب الجزائري المتقدم في ظل الحضارة العربية والثقافة الإسلامية. وهو بالتالي لم يكن شعباً جاهلاً أو بربرياً كما أرادت تصويره روايات «الأدب الاستعماري» والذي يعتمد على مجموعة من الأساطير القديمة والمرتبطة في تاريخها بأيام الحروب الصليبية القديمة وأحداثها.

كان يوجد في الجزائر قبل احتلال فرنسا سنة ١٨٣٠، جمعية ثقافية إسلامية كبرى، إلى جانب جمعيات صغرى كثيرة. فكان التعليم منتشراً حتى في أقصى المناطق النائية، وفي أصغر القرى ـ والدواوير ـ فكان المرء يرى المدارس الكثيرة التي تضم الشبيبة الناشطة. كما كانت الجامعات منتشرة في كافة أصقاع العالم الإسلامي ـ العربي. وقد سجل «الجنرال هوتبول» في مذكرة بعث بها سنة ١٨٥٠ الى رئيس

الجمهورية الثانية ما يلي: « **كانت الثقافة الإسلامية قبل الاحتلال واسعة الانتشار، وشاملة للفروع الآتية: ١ - التعليم الابتدائي الذي يشمل الأطفال بين الثالثة والعاشرة. ٢ - التعليم الثانوي ويشمل الأحداث بين العاشرة والخامسة عشرة. ٣ - التعليم العالي: للشباب، ويشمل الفقه والحقوق والرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب. وكان التعليم الثانوي والعالي مجانياً كالتعليم الابتدائي. وكان يوجد في الجزائر أيضا جامعات أهمها: جامعة قسنطينة، وجامعة مدينة الجزائر، وجامعة تلمسان، وجامعة مازونا وبسكرة. وكانت هذه الجامعات من مستوى جامعة القاهرة وجامعة تونس وجامعة فاس، وكانت تضم آلاف الطلبة المسلمين** ».

وجاء الاستعمار الإفرنسي ليبذل كل ما يستطيعه من أجل تدمير المجتمع الجزائري وتكوينه تكويناً جديداً يستجيب لأهدافه ويحوله نحو وجهة جديدة. واعتمد خطة هدامة ذات اتجاهين: أولها تعميم الجهل. وثانيهما: نشر ثقافة فرنسية استعمارية. والهدف من الخطة هو القضاء على الثقافة الاسلامية واجتثاثها من جذورها. وتجريد الجزائريين المسلمين بالتالي من تراثهم القومي بغية القضاء على كل وعي وطني أو شعور بانتمائهم الى شعب عظيم له ثقافته الرائعة وحضارته المميزة. وفي إطار هذه الخطة، عمل الاستعمار الإفرنسي على إغلاق المدارس وتشتيت الطلاب، وحل المنظمات الخيرية - الدينية التي كانت تشرف على حركة التعليم، ومصادرة أموالها (الأوقاف)، والقضاء على قواعد التعليم (المساجد). واعتبار اللغة العربية التي هي اللغة القومية - لغة أجنبية - بموجب القانون وتحريم تدريسها. ولقد طبق في

الجزائر نظام تدريس أشبه ما يكون بالنظام المطبق في فرنسا، وهو نظام لم يطبق في أي مستعمرة أخرى غير الجزائر.

كما أنه حرم على الجزائريين المسلمين اتِّباع أي نظام تعليمي آخر. وحظر تعليم اللغة العربية أو التاريخ الوطني أو الاطلاع على الحضارة العربية ـ الاسلامية؛ هذه الحضارة التي ترتبط بها الثقافة الجزائرية ارتباطاً وثيقاً. وظل التعليم بين سنة ١٨٣٠ ـ ١٩٤٤ بالنسبة للطلاب الجزائريين معدوماً أو شبه معدوم، بينما كان عاماً بالنسبة للأوروبيين. فالمدارس لا تقبل سوى عدد محدد جداً من الطلاب الجزائريين، وعلى شكل امتياز في معظم الأحيان لمن ترضى عنهم الادارة الإفرنسية. غير أن هذه الأقلية الضئيلة جداً قد روع وجودها في المدارس السكان الأوروبيين، كما تثبته هذه الوثيقة التي تبناها مؤتمر المستعمرين في الجزائر سنة ١٩٠٨. وتضمنت الوثيقة ما يلي: « ... اعتقاداً منا بأن تعليم الوطنيين في الجزائر إنما ينطوي على محاذير حقيقية، سواء في المضمار الاقتصادي، أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين ـ الإفرنسيين ـ فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الابتدائي لهؤلاء الوطنيين إلغاء نهائياً ». وتجدر الإشارة إلى أن عدد الطلاب المسلمين الجزائريين المقبولين في المدارس خلال تلك الفترة، لم يكن يتجاوز (٤١) ألف طفل من أصل (١,٧٨١,٠٠٠) طفل كانوا في عمر الدراسة.

لم يستسلم مسلمو الجزائر لهذه المخططات، وقاموا بالرغم من كل الضغوط والظروف السيئة ببذل كل جهد ممكن للمحافظة على وجودهم من خلال تمسكهم بكتاب الله وإقبالهم على التعليم

الإسلامي العربي. وقام شيوخ المسلمين في الأغواط وميزاب وقسنطينة بنشر التعليم، كما عملت جمعية علماء مسلمي الجزائر - عبد الحميد بن باديس وإخوانه في الله - على إرساء القواعد الإسلامية الثابتة ونشر التعليم الإسلامي والثقافة العربية، وأخذت محصلة هذه الجهود في إعطاء ثمارها على شكل نهضة ثورية شاملة. وشعرت فرنسا بخطورة الموقف، فأخذت منذ سنة ١٩٤٤ ببذل محاولات جديدة لاستعادة المبادأة، والقضاء على المدارس الخاصة، وذلك بفتح أبواب المدارس للتعليم الابتدائي في المدارس الرسمية - الإفرنسية -. وزاد عدد الطلاب الجزائريين في هذه المدارس، غير أن عدد الطلاب الذين لم تتسع المدارس لقبولهم بقي كبيراً. وذلك لأن الإدارة الإفرنسية لم تعمل على زيادة عدد المدارس أو بناء مدارس جديدة، وكل ما فعلته هو أنها اخترعت نظام المدارس التي تعمل بنصف دوام (الدوام النصفي) الذي يحقق هدفاً مزدوجاً - الأول: تخفيض مستوى التعليم - تعميم الجهل بالتعليم. والثاني: استيعاب أكبر عدد من الطلاب لمقاومة جهد المدارس الاسلامية الخاصة وحرمانها من التطور. أما المدارس الابتدائية التي كان يتم افتتاحها جديداً فكانت تخصص لأطفال الأوروبيين، وهذا مما تؤكده الاحصاءات الرسمية التي أعلنت سنة ١٩٥٣. وجاء فيها ما يلي:

١ - التعليم الابتدائي :

- الطلاب الجزائريون (٢٦٩) ألف طفل سجلوا من أصل (١,٩٦٩,٠٠٠) طفل في سن القبول، أي أن نسبة الذين بقوا خارج المدارس من هؤلاء الأطفال هي (٨٦,٥) بالمائة.

- الطلاب الأوربيون (١٣٥) ألف طفل ، هم جميع اولاد الأوربيين .

٢ - التعليم الثانوي :

الطلاب الجزائريون (٤١٥٩) طالباً من أصل ١٢ مليون نسمة .
الطلاب الأوربيون (٢٤) ألف طالب من أصل (٨٠٠) ألف أو حتى (٩٠٠) ألف نسمة .

٣ - جامعة الجزائر :

الطلاب الجزائريون (٥٠٧) طلاب .
الطلاب الأوربيون (٥١٣٢) طالباً.

وفي مجال التعليم الفني (المهني) فقد أُنشئت معاهد عالية للتعليم الزراعي ،ومعاهد متوسطة ومدارس ابتدائية . ولم يكن المعهد الزراعي العالي يضم ولو جزائرياً واحداً في عداد طلابه . وكان عدد الطلاب في بقية المعاهد - من الجزائرين والإفرنسيين على النحو التالي :

المدارس الزراعية	الجزائريون	الإفرنسيون
مدرسة فيليب فيل	٢	٣٣
مدرسة عين طموشنت	٣	٤٤
مدرسة سيدي بن العباس	٢	٨٢
مدرسة الجلم	٣٧	٥٥
مدرسة المختراس	٣٠	٣٠
المعهد العالي الزراعي	-	١٣٨
المجموع	٧٤	٣٨٢

وتتكرر هذه الظاهرة في التعليم الصناعي، حيث يلاحظ تناقص عدد الجزائريين كلما ارتفع المستوى التعليمي وفقا لما تشير اليه دراسة إحصائية للسنة الدراسية ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ وهي كالتالي :

المدارس الصناعية	الجزائريون	الإفرنسيون
مركز التدريب	٣٦٠٠	٣٠٠٠
فروع التعليم المهني	٣٠٠	٦٦٠
الثانوية الصناعية	٣٠٠	١٥٥٠
المعهد العالي الصناعي	١١	٣١٤
المجموع	٤٢١١	٥٥٢٤

لقد كانت شرعة محاربة التعليم في الجزائر؛ مجسدة بما أعلنه المستوطنون الإفرنسيون، في مجابهة الحكومة الإفرنسية سنة ١٨٩٤، عندما فكرت هذه الأخيرة في تطوير التعليم في الجزائر، فطرح المستوطنون مقولتهم التالية : « **لا حاجة لبناء المدارس وإنشائها للبرهان على قوتنا وقدرتنا، فالكرم لا نفع منه في بلاد تنكر الجميل** ». وبقيت هذه المقولة هي الشرعة السائدة في الجزائر طوال عهد الاستعمار.

* * *

لقد أخذت الأقلام الاستعمارية في الدفاع عن فرنسا الاستعمارية، وتحميل كل سوءات الاستعمار وعيوبه للمستوطنين. غير أن مثل هذه المحاولات لتبرئة الاستعمار الإفرنسي ومحاولة منحه « شهادة حسن سلوك » هي محاولات فاشلة. ذلك أن كل البراهين والشواهد تؤكد حقيقة واحدة وهي أن الاستعمار الاستيطاني في

الجزائر لم يكن الا وسيلة لضمان السيطرة الاستعمارية ، وتأميناً للنهب الاستعماري . وقد قام هذا الاستعمار الاستيطاني بواجبه على أكمل وجه في تنفيذ المخططات الاستعمارية الإفرنسية . وكان لا بد للمستوطنين من امتيازات مقابل الخدمات التي كانوا يقدمونها للوطن الأم . وعلى هذا فمن المحال فصل الاستعمار الإفرنسي عن أجهزته التنفيذية والممثلة بالاستعمار الاستيطاني . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية، فقد تعاقب على حكم فرنسا منذ استعمارها للجزائر سنة ١٨٣٠ وحتى الثورة المباركة للجزائر في سنة ١٩٥٤ أنظمة امبراطورية وملكية وجمهورية، يمينية، يسارية، وكلها سلكت خطاً ثابتاً تجاه الجزائر، أليس في ذلك ما يدين فرنسا الاستعمار وفرنسا الدولة ؟ علاوة على ذلك، فقد حاول الجزائريون منذ استعمار فرنسا لبلادهم أن يعملوا على إصلاح المفاسد بالتوجه الى الحكم الافرنسي - في باريس مباشرة. وكانت هذه المحاولات تصطدم دائماً بمدافع فرنسا الطويلة. ولقد بقي هذا الحلم الخادع، والسراب المضلل، أمل اولئك الذين نشأوا في أحضان « المدرسة الإفرنسية » ونادوا بدمج الجزائر بفرنسا. وهم يفصلون في محاولاتهم تلك بين الاستعمار الإفرنسي وجهازه التنفيذي (الاستعمار الاستيطاني) حتى تبين لهم في النهاية صعوبة إجراء مثل هذا الفصل، ولم يجدوا أمامهم في النهاية غير طريق الثورة .

وبعد، قد يكون من الصعب في هذه العجالة، عرض كل ملامح الجزائر عشية ثورتها، سواء في مجال التميز العنصري بين المسلمين الجزائريين، والعنصريين الإفرنسيين، أو في مجال التمييز في الوظائف والخدمات - وحتى الخدمة في الجيش - أو في مجال الرعاية الصحية.

ولعل ما سبق طرحه، هو أمر كاف لإيضاح صورة الموقف وتعميمها على كل مرافق الحياة العامة والخاصة، وعندئذ يمكن القول: كم احتمل شعب الجزائر من عنت الاستعمار وظلمه؟ ولرب قائل بأن البيانات السابقة، والمعلومات الواردة، قد تجاوزها الزمن، وأصبحت في ذمة التاريخ. وكان بالمستطاع تناسي تلك الآلام والمآسي لو توقفت الحرب فعلاً، وانتهى الصراع حقيقة. غير أن الصراع لم يتوقف ولو أن وسائله قد تطورت. وعلى هذا يجب ألا ننسى أبداً، ويجب أن نتذكر دائماً. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن جيل الأبناء يجب عليه أن يعرف ما هو الاستعمار؟ وكم عانى الآباء والأجداد من قسوة الاستعمار ووحشيته، وعندئذ سيحرص جيل الأبناء على استقلاليته بقدر ما يتناسب مع جهود السلف وتضحياتهم.

٢ ـ الموقع الجيواستراتيجي والطبوغرافي[١]

ليس هدف البحث في هذا القسم إجراء دراسة عامة وشاملة للجغرافية الجزائرية. إذ أن بلوغ هذا المطمح أمر عسير في بحث يتركز بالدرجة الأولى على الثورة الجزائرية، وظروف انطلاقتها، ولكن إذا كان من الصعب تحقيق ذلك، فلا أقل من إعطاء فكرة وجيزة قدر المستطاع عن طبيعة مسرح الأعمال القتالية الذي شهد أحداثاً مثيرة في حرب ضارية استمرت سبع سنوات.

تشكل الجزائر، على ما هو معروف، القسم المتوسط من المغرب الإسلامي ـ العربي والذي أطلق عليه العرب قديما اسم «جزيرة المغرب»، ذلك أن البحر المائي يحد هذه الجزيرة من الشرق والشمال والغرب ويحدها البحر الرملي من الجنوب. وتمتد الجزائر فوق مساحة تزيد على المليونين من الكيلو مترات المربعة، وتتصل في حدودها الشرقية مع تونس وليبيا، وفي حدودها الغربية مع المغرب وموريتانيا وفي الجنوب مع النيجر ومالي. وتتميز الظواهر الطبوغرافية للجزائر بمظهرين أساسيين هما: سلاسل جبلية في الشمال. متقطعة، تنحصر

(١) تم الاعتماد في هذا القسم، وبالدرجة الأولى، على كتاب «جغرافية الجزائر» للاستاذ: حليمي عبد القادر علي.

بين فكيها أراض مرتفعة تسمى بالنجود. وفي الجنوب قاعدة عظيمة متسعة الأرجاء ، فيها سهول حقية، وجبال بركانية، وكثبان رملية وهضاب صخرية. والانحدار العام لإقليم الشمال الجزائري يتجه من الجنوب إلى الشمال في أغلب الأجزاء .

ويظهر ذلك بوضوح إذا ما تم أخذ مقاطع مختلفة تمتد من الساحل حتى جبال الأطلس الصحراوي. ثم أجريت المقارنة فيما بينها . وعلى سبيل المثال، فإذا ما أخذ مقطع يبدأ من وهران إلى العين الصفراء ، ماراً بجبال الضاية فجبال عنتر ، (انظر المقطع أ) حيث يظهر أن منطقة العين الصفراء يزيد فيها الارتفاع على الألفي متر (جبل عيسى بالقرب من العين الصفراء ارتفاعه ٢٢٣٦ مترا) بينما جبال تاسالا بالقرب من وهران لا يزيد ارتفاعها عن الألف متر الا قليلاً، أي أن الارتفاع في الجنوب يفوق الارتفاع في الشمال بالضعف. ولهذا كانت الأودية في الشمال الغربي من الجزائر تنحدر من الجنوب إلى الشمال، مثل وادي الشلف الذي يأخذ منابعه من جبال عمور. وكذلك الأمر بالنسبة للإنحدار العام في إقليم شمال شرق الجزائر، حيث يتجه هذا الانحدار من الجنوب الى الشمال (كما يظهره المقطع ج) الذي يبدأ من رأس بوقرعون، وينتهي عند أقدام السفوح الجنوبية من جبال أوراس، ماراً من الشمال الى الجنوب بجبال القبائل الصغرى (نوميدية) التي يقل ارتفاعها عن الألف متر ، ثم الوادي الكبير، ثم شطابه، ويزيد ارتفاعها عن الألف متر ، ثم هضاب البحيرات التي لايزيد ارتفاعها على الألف متر ، ثم جبال الأوراس. وهنا يتم الوصول الى منطقة يشتد فيها الارتفاع، اذ يزيد على الألفي متر . ويظهر ذلك الشبه الشديد بين هذا المقطع وبين

المقطع الوهراني في انحداره العام. أما المقطع الثالث الذي يبينه الشكل (ب) والذي يبدأ من « دلس » الى « بسكره » ماراً بوسط الجزائر، فلا يشبه المقطعين السابقين في انحداره العام. إذ بدل أن يكون من الجنوب إلى الشمال، فهو يتجه من الشمال الى الجنوب، فمثلاً في جبال جرجره التي يزيد ارتفاعها على الألفي متر، ثم جبال البيبان (١٨٦٢ م) ثم جبال ونوغة (١٤١٧ م)، ثم إقليم الحضنة الذي يقل ارتفاعه عن (٥٠٠ م)، وهذا الاتجاه في الانحدار هو الذي جعل الأودية التي تصرف جبال الأطلس الصحراوي في هذه المنطقة، والتي تنحدر من جبال الحضنة، تصب في شط الحضنة، وأغلبها متجهة من الشمال إلى الجنوب، بعكس أغلب أودية الجزائر الشمالية. ولقد ساعد هذا الانخفاض في اقليم بسكرة على جعل مدينة بسكرة بوابة الصحراء، منها كانت تمر القوافل التجارية التي تربط بين الشمال والجنوب. ومن الملاحظ على جبال الجزائر أنها غير متصلة بعضها ببعض، وغير متقاربة في الارتفاع، ولهذا كان إطلاق اسم سلسلة جبلية عليها ضرباً من التسامح، إذ هي جبال متقطعة، أو أرداف دائرية الشكل تتماشى مع خط مستقيم، أو قباب تفصل بينها جروف نحتتها مياه الأمطار الغزيرة. وأفضل منطقة تظهر بها هذه الجروف هي منطقة الأخضرية (بالسترو) حيث يظهر وادي يسر وقد شق طريقه في جبال الأخضرية الشاهقة، ونحتت مياه الوادي التكوينات السطحية اللينة ثم تعمقت إلى أن بلغت الصخور الغرانيتية التي أخذت في إزالتها أيضاً. وبدلاً من أن يأخذ النهر في توسيع مجراه، راح يعمقه، حتى كأنه سيف انصب على الجبل فشطره الى شطرين شديدي الانحدار. وتظهر هذه الحالة ذاتها مرة أخرى

بوادي الرمل في مدينة « قسنطينة » الذي يشق طريقه بين حافتين شديدتي الانحدار من صخور جيرية صلبة. وكذلك وادي اقريو ـ بشعبة الآخرة. يختلف الانحدار العام في شمال إقليم الصحراء عنه في جنوبه. ففي المنطقة المتاخمة للسفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي، يأخذ الانحدار العام من الشمال إلى الجنوب، وأما في الجهات الجنوبية الشرقية، فالانحدار العام من الجنوب الى الشمال، كما يبينه وادي « إيغارغار » الذي يأخذ منابعه من جبال الهوقار، ويتجه نحو الشمال. ويمكن تقسيم الجزائر الى خمسة أقاليم تضاريسية متباينة هي من الشمال إلى الجنوب : ١ ـ إقليم الشواطىء . ٢ ـ إقليم الأطلس التلي . ٣ ـ إقليم النجود . ٤ ـ إقليم جبال الأطلس الصحراوي ٥ ـ إقليم الصحراء .

آ ـ ١ ـ إقليم الشواطىء : وهو الإقليم الفاصل بين البر والبحر، أو ما يسمى « سيف البحر » . ويمتد الشاطىء الجزائري على شكل خط متعرج يبلغ طوله من غرب الغزوات حتى شرق القاله مسافة (١٢٠٠) كيلو متر تقريباً. ويتميز الشاطىء الجزائري بكونه صخرياً صلباً يمتد على طول الساحل موازياً للاتجاه العام لسلسلة الأطلس التلي من الغرب إلى الشرق بصفة عامة. ولا تسمح طبيعة هذا الشاطىء الصخري بظهور الموانىء الطبيعية التي تحمي البواخر طبيعياً من تحرك المياه البحرية. ولهذا كان من الضروري بناء كاسرات الأمواج التي تتحطم عليها الأمواج بدلاً من تحطيمها على جدران البواخر، كما هو الحال في ميناء الجزائر الذي تحيط به سدود تفصل بين مياه عرض البحر المتحركة والمياه الساكنة للميناء. ويظهر الجدار الصخري المتمثل في خط الالتقاء بين البر والبحر، وهو يختفي

في معظم الأحيان فجأة داخل الماء. أو هو يرق الى أن يتحول الى حاشية دقيقة لا تزيد عن كيلو مترات قليلة. ولهذا نجد إقليم الرصيف القاري - وهو إقليم الحياة الحيوانية والنباتية المائية ضيقاً للغاية في الجزائر بخلاف ما هو عليه هذا الرصيف في إقليم الشاطىء التونسي أو المغربي - المراكشي - . فخط عمق (٢٠٠) م بالبحر لا يزيد بعده عن الساحل الجزائري بأكثر من خمسين كيلو متراً. بينما هو يبعد بأكثر من هذا في الإقليمين الآخرين من المغرب العربي. فالرصيف القاري التونسي واسع جدا. ولو كان طول الإنسان(٥٠) متراً، لاستطاع أن يخوض البحر راجلاً من جزيرة جربة الى جزيرة قرقنة في وسط البحر. ولو كان طوله ألف متر لاستطاع أن يسافر من رأس بونه الى جزيرة صقلية راجلاً دون أن يحتاج الى ركوب سفينة. أما في الجزائر، فلا بد أن يزيد طول الإنسان الذي يريد قطع البحر راجلاً من الجزائر الى مرسيليا على الألفي متر. وتتوقف الثروة الحيوانية والنباتية البحرية على اتساع الرصيف القاري (أو المنطقة البحرية التي يقل عمقها عن مائتي متر). وهذا هو السبب في أن البلاد التونسية أغنى من الجزائر في صيد الأسماك. وتتخلل الشاطىء الجزائري ظاهرة الخلجان التي تشبه أنصاف الدوائر، مثل خليج وهران، وخليج أرزيو، والجزائر، وبجاية، وسكيكدة وعنابة. وكل هذه الخلجان مفتوحة أمام الرياح الغربية، وتيار البحر الأبيض المتوسط القادم من جبل طارق، الذي يحمل بين طياته رواسب يلقي بها على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان. ولذلك، فمن الملاحظ أن الموانىء الجزائرية تقوم على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان حتى تكون بعيدة عن رواسب التيار البحري. ولا تتعمق هذه الخلجان إلا قليلاً داخل اليابس

(البر) ما عدا خليج بجاية الذي يعتبر أكبر خليج في الجزائر. والى جانب الخلجان تظهر الرؤوس المتعمقة داخل البحر ،والمنتشرة من الغرب الى الشرق على طول الساحل، ومن أهمها: رأس ملوية عند الحدود الجزائرية المغربية، ثم رأس فالكون غربي المرسى الكبير، ورأس فرات وكربون بالقرب من أرزيو. ورأس تنس والعموشي قرب مدينة شرشال، وراس البرج البحري الى الشرق من مدينة الجزائر، وكافالو إلى الشرق من بجاية، وكاربون الى الغرب من بجاية. أما خليج سكيكدة فينحصر بين راسين، أحدهما في الشرق وهو راس الحديد والثاني في الغرب وهو راس بوقرعون. واذا تقدمنا الى الشرق نجد رأس الحارس بالقرب من عنابة. ورروزا ورروكس بالقرب من الحدود الجزائرية - التونسية. وبهذه الرؤوس الممتدة من الغرب الى الشرق منارات لإرشاد السفن. وتزدهر فيها الحياة النباتية. وقد بنيت عليها المدن، واستصلحت أراضيها، وزرعت بها أشجار الفواكه والخضار، وأصبحت مكتظة بالسكان. وهي تمثل مواقع جيو- استراتيجية هامة، تتم منها مراقبة التحركات البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وبها أقيمت مراكز المراقبة لحراسة الشواطىء الجزائرية. وتمثل بعض هذه الرؤوس فوهات بركانية: مثل رأس الحديد، ورأس بوقرعون ورأس كافالو، ورأس البرج البحري.

آ - ٢ - **اقليم الأطلس التلي** : وهو إقليم يضم سلاسل جبلية ممتدة من الغرب إلى الشرق موازية للشاطىء الجزائري، ويضم أيضاً السهول والتي تقسم إلى سهول ساحلية منخفضة وسهول داخلية مرتفعة وهي سهول متقطعة محصورة بين الجبال. **وأشهر السهول الساحلية** :

آ - **سهل وهران** : ويمتد إلى الجنوب من مدينة وهران، بادئاً من عين

« تيموشنت » غرباً، إلى منعطف نهر الشلف ومليانة شرقاً. وهو سهل طويل ممتد من الشرق الى الغرب، تجري به أودية كثيرة. وتحده من جنوبه جبال تاسالا وبوقرين والونشريس، وفي الشمال جبال الظهرة وزكار. ويتسع السهل في الوسط، كما يمتد شمالاً حتى شاطىء البحر بالقرب من مستغانم. أما من الجهات الشرقية فتعترض امتداده هضبة الأطلس البليدي. ويضم سهل وهران مجموعة من الأحواض المائية العذبة « الدايات »، ومجموعة من الأحواض المائية المالحة « السبخات ».

ب ـ سهل متيجة «متوجة»، ويعتبر امتداداً طبيعياً لسهل وهران، لا يفصل بين السهلين إلا منطقة جبلية ضيقة بالقرب من مليانة. ويحد سهل متيجة من الجنوب أطلس البليدة (الذي يسمى أيضاً بالأطلس المتيجي)، ويمتد من غرب حجوط حتى جبل « بوزقزه ». ويحد سهل متيجة من الشمال جبل بوزريعة، أو الحافة الجبلية المرتفعة والممتدة على شاطىء البحر من مدينة الجزائر حتى شرشال. هذا في الجهات الغربية، أما إلى الشرق من مدينة الجزائر، فيكاد السهل المتيجي يشرف على البحر، لولا ظهور روابي رملية ضيقة تفصل بين البحر والسهل. ويطلق على الحاشية الرملية من الروابي اسم « الساحل » ابتداء من الحراش حتى وادي « بودواو » والسهل المتيجي ضيق لا يزيد عرضه على ثلاثين كيلومتراً، أما طوله فيزيد على مائة كيلومتر.

ج ـ سهل عنابة : ويحده شمالاً جبال أيدوغ والبحر الأبيض المتوسط وغرباً جبال القبائل الصغرى « نوميديا » وجنوباً جبال سوق

أهراس. وشرقاً جبال مجرده. وتنتشر به البحيرات. ويجري به وادي السيبوس.

هذه هي أهم السهول الساحلية المنخفضة المشهورة بالغلال والخضر والبساتين والكروم. أما السهول الداخلية المرتفعة فهي للحبوب. ومن أهمها :

آ ـ **سهل تلمسان : يرتفع (٧٣٧)** متراً عن سطح البحر. يقع عند أقدام السفوح الشمالية لجبال تلمسان. وهو سهل كثير الخيرات بسبب وفرة مياهه، وخصوبة تربته (المارنية) .

ب ـ **سهل بلعباس: ويرتفع (٥٨٣)** متراً عن سطح البحر. **ويشتهر بالحبوب وزراعة الكروم.**

ج ـ **سهل تيارت (أو السرسو):** المنحصر بين جبال **الونشريس شمالاً وجبال فرنده والشلالة جنوباً.**

د ـ **سهل عين بسام:** وينحصر بين جبال تيطري جنوباً والبليدة **شمالاً.**

هـ ـ **سهل قسنطينة:** ويمتد من غرب مدينة سطيف ـ غرباً ـ حتى جبال سوق أهراس شرقاً، وهو أعظم سهل داخلي تكثر به زراعة الحبوب والقمح الصلب بصورة خاصة. وتقع هذه السهول كلها على ارتفاع يزيد على خمسمائة متر وهي أقرب الى النجود منها الى السهول.

* * *

أما بالنسبة لسلسلة الجبال التلية، فهي تمتد من الغرب إلى الشرق، بادئة من جبال تلمسان بالحدود الجزائرية ـ المغربية. ومنتهية

بجبال سوق أهراس بالحدود الجزائرية ـ التونسية .ويمكن تقسيمها إلى كتلة جبال غربية وكتلة جبال شرقية، تفصل بينها جبال مليانة « أوزكار ». وهذا التقسيم على أساس النضج والتطور والاتساع. ذلك أن كتلة الأطلس التلي الشرقي أكثر اتساعاً من كتلة الأطلس التلي الغربي. ثم إن قمم الكتل الجبلية الشرقية أخذت تتسطح، والأودية تسير بها في شكل عرضاني. والأحواض الداخلية مصروفة للغاية، كما هو الحال في حوض « قالمة ». وتدل هذه الظواهر الطبيعية كلها على أن تطور التضاريس في الجهات الشرقية أكثر وضوحاً مما هو عليه في الجهات الغربية التي ما زالت تظهر بها القمم العالية ذات الأطراف الحادة، والأحواض المعلقة التي لم تصرف بعد ولم تملأ بالرواسب. ويعود سبب تطور التضاريس في الشرق، أكثر منها في الغرب إلى الأمطار التي تنزل في الإقليم الشرقي أكثر منها في الإقليم الغربي، وليس السبب في أن جبال الإقليم الشرقي أقدم في تكوينها وظهورها من جبال الإقليم الغربي .

تبدأ الكتلة الجبلية الغربية بجبال تلمسان، وهي الحد الفاصل بين جبال الريف بالمغرب، وجبال الأطلس التلي بالجزائر، ويبلغ ارتفاعها (١٨٢٤ م) وتتكون في معظمها من صخور جيرية. ثم إذا تقدمنا شرقاً اعترضتنا جبال تاسالا (١٦٠١ م) وهي التي تحد شمالاً سهل بلعباس المرتفع، أما جنوباً فتحده جبال الضاية (١٤١٧ م) ثم تعترضنا شرقاً جبال سعيدة (١٢٨٨ م)وهي الحد الجنوبي لسهل معسكر المرتفع. وإلى الشرق من الجبال السابقة نجد جبال فرنده (١١٣٢ م) ثم جبال الونشريس (١٩٨٥ م) والظهرة (١٠٧١ م) وجبال زكار (١٥٧٩ م) ويتكون أغلب هذه الكتل الجبلية من

صخور جيرية، متميزة بشدة التوائها، وظهورها أحياناً في شكل أسفاط أو قشور الأسماك. وإلى الشرق من جبال زكار تبدأ كتلة الجبال الشرقية ـ التي تبدأ بجبال البليدة (أو الأطلس المتيجي) الذي يبلغ ارتفاعه (١٩٧٢ م). وهو من صخور الشيست والمارن، تكثر به ظاهرة الأسفاط من شدة الالتواء الذي تعرضت له المنطقة. والى الشرق من جبال البليدة يرتفع جبل بوزقرة إلى ألف متر، وهو من صخور جيرية. ثم تأتي جبال جرجرة وهي من صخور جيرية مشققة أو هضاب قديمة تبلغ أعلى قمة بها (وهي قمة لاله خديجة ـ ٢٣٢٨ م)، ثم جبال البابور (٢٠٠٤ م)، وهي كذلك من صخور جيرية. ثم هضبة القل (١٠٩٠ م) وجبال إيدوغ (١٠٦٨ م) الذي يتكون من صخور قديمة جداً، مثله كمثل منطقة أربعاء بني راتن بهضبة جرجرة، وجبل بوزريعه الذي تقوم عليه مدينة الجزائر العاصمة.

تظهر إلى الجنوب من كتل الأطلس التلي الشرقي مجموعة من الكتل الجبلية الأخرى التي تسير موازية للجبال السابقة، وتتكون من طبقة رسوبية سميكة من الشيست، تتخللها تكوينات حصوية أو طينية أو مارنية، من أهمها جبال تيطري (١٢٣٨ م) التي تتصل بجبال البيبان (١٤١٧ م) وهذه الأخيرة تظهر بقللها الصخور الجيرية والكوارتزية. ثم جبال فرجيوه، بالقرب من فج مزالة، ثم جبال نوميدية (أو جبال قسنطينة ـ ١٤٦٩ م) الى الشمال من مدينة قسنطينة، وجبال سوق أهراس أو مجردة (وتتكون جبال فرجيوه وقسنطينة من صخور جيرية مشققة).

آ ـ ٣ **إقليم النجود** : وهو يشمل المنطقة الممتدة من جبال التندارة غرباً الى **منخفض** الحضنة شرقاً. حيث يتسع الأطلس التلي ويمتد إلى

الجنوب ليلتقي مع الأطلس الصحراوي .وتمتد أراضي النجود في شكل طولاني بين السلسلتين الأطلسيتين الشمالية والجنوبية . وهي أقل ارتفاعاً منهما، تسير من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي على طول (٧٠٠) كيلو متر . متبعة في ذلك الاتجاه العام لسلسلة جبال الأطلسي الصحراوي (وتشبه في وضعها هذا ساحة البيت العربي حيث يشكل الأطلس التلي جدارها الشمالي، ويشكل الأطلس الصحراوي جدارها الجنوبي) وبذلك فهي منطقة ذات صرف داخلي، أوديتها تصب في الشطوط ما عدا الوادي الطويل. ويتجه الانحدار العام لإقليم النجود من الغرب الى الشرق متبعاً في ذلك سلسلة الأطلس الصحراوي ويتبين ذلك في المقارنة بين الشط الغربي والمناطق الواقعة الى الشرق منه. فالجهات الغربية من النجود يتراوح ارتفاعها بين الألف والألف ومائتي متر، في حين يتراوح ارتفاع الجهات الوسطى بين سبعمائة وثمانمائة متر. أما شط الحضنة فيقل ارتفاعه عن أربعمائة متر.

وكما أن الجهات الغربية أكثر ارتفاعاً من الجهات الشرقية فإنها أكثر اتساعاً. فالمسافة بين الأطلس التلي والصحراوي في الجهة الغربية تزيد عن مائة وخمسين كيلو متراً. وأما من الناحية الشرقية فتقل عن خمسين كيلو متراً. وبحسب هذا الوصف تكون أرض النجود أشبه بمثلث قاعدته الحدود الجزائرية المغربية، وقمته شط الحضنة، وهو عبارة عن سرج عظيم، أو هضبة واسعة تتخللها الانكسارات التي أصابت الإقليم في فترة تعرضت فيها جبال الأطلس للالتواء. ذلك أن صلابة الصخور التي تتكون منها أراضي النجود أدت الى انكسارها عندما تعرضت للضغط. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة خلال الشقوق

وسطوح الانكسارات التي لم تمتلىء بعد بالرواسب، مثل فالق غار الروبان الذي يستخرج منه الرصاص بالقرب من الحدود الجزائرية ـ المغربية.

يقطع أرض النجود في شكل طولي من الجنوب الغربي، نحو الشمال الشرقي، كل من جبال عنتر التي يصل ارتفاعها الى (١٥٠٨م) وجبل سبع رؤوس (١٤١١ م)، وهو يفصل بين منخفض بوقزول في الجهات الشمالية، وارتفاعه (٦٥٠ م) ومنخفض الزاغز الغربي في الجنوب، وارتفاعه (٨٠٠ م). وما عدا هذه الجبال والانكسارات، يظهر سطح أرض النجود في شكل انتفاخ واسع تتخلله روابي تكونت نتيجة لتزحزح المنطقة نحو الجنوب الغربي، وتظهر أحواض مغلقة وشطوط واسعة، وزواعز ضيقة في النجود أيضاً. أما الأحواض المغلقة فتكسوها طبقة صماء كتيمة، تملؤها مياه الأمطار في فصل الشتاء ثم تتبخر في فصل الصيف، تاركة وراءها نسبة قليلة من الرطوبة، عليها تقوم الحياة العشبية، والشطوط الواسعة أو الضيقة، وهي أحواض مغلقة أيضاً، تتجمع فيها مياه الأمطار المحملة بالجزئيات الملحية والطينية الواردة من المناطق المجاورة لها في فصل الشتاء. وهو الفصل الذي تحتل فيه السبخة أكبر مساحة ممكنة. أما في فصل الصيف، فيشتد التبخر، ويقل سطح الماء؛ وتضيق بالتالي مساحة الشط، وتشتد ملوحة السبخة التي تبقى محافظة على نسبة من الماء المختلط بالملح والطين، يشبه الحمأة، ويعلوه الزبد الذي هو نذير الخطر، يعطي للناظر من بعيد مظهر البحيرة العذبة، حتى إذا جاءها لم يجدها، بل وجد فخاً طبيعياً تعرفه غزلان النجود التي لا تقترب منه مهما أضناها الظمأ. وأهم هذه الشطوط التي تنتشر

هنا وهناك على سطح إقليم النجود، هي : **شط الحضنة**، وتنصرف إليه مياه أوديت وجبال تيطري وونوغة والحضنة من الشمال، ومياه أودية أولادنايل والزاب من الجنوب، **والشط الشرقي**، وتنصرف اليه مياه السفوح الجنوبية لجبال الضاية، والسفوح الشمالية لجبال قطارة، ثم **الشط الغربي**، ويقع بالحدود الجزائرية ـ المغربية. وتنصرف اليه مياه جبال التندرارة من الجنوب الغربي، ومياه سفوح جبال سيدي العابد من الشمال .

آ ـ ٤ ـ **الأطلس الصحراوي** : تمتد جبال الأطلس الصحراوي على طول سبعمائة كيلو متر ، من فجيج غرباً حتى إقليم الزاب شرقاً . وتتجه سلسلة الأطلس الصحراوي من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، فاصلة بين أراضي النجود في الشمال والكتلة الصحراوية القديمة في الجنوب. وهي حاجز للرمال الصحراوية، ولولاها لاكتسحت الرمال مناطق النجود، وربما وصلت الى ساحل البحر الأبيض المتوسط، كما هو الحال في الصحراء الليبية التي تصل رمالها في بعض الأجزاء حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط. وتتخلل جبال الأطلس الصحراوي ممرات ودروب، تتبعها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، وقد كانت هذه الدروب، وما زالت، تمثل الممرات الطبيعية للقوافل التجارية القادمة من الصحراء إلى إقليم التل أو العكس. ونجد الطرق المعبدة الحالية والخطوط الحديدية كثيراً ما تسلك هذه الممرات الطبيعية لتصل بين الشمال والجنوب. أو بين إقليم التل وإقليم الصحراء. ويزيد الأطلس الصحراوي في ارتفاعه، على ارتفاع الأطلس التلي ـ بصورة عامة ـ رغم قدمه في تاريخ تكوينه. ويعود السبب في ذلك الى أن الأمطار في الإقليم التلي أكثر منها في

الإقليم الجنوبي، وبالتالي، فإن عملية النحت المائي والترسيب ونقل المواد المفتتة في إقليم الأطلس التلي هي أنشط منها في الأطلس الصحراوي، الذي كثيراً ما نجد عند سفوح جباله المفتتات الصخرية المتراكمة التي تنتظر سيلا جارفاً أو أمطاراً كافية لنقلها. أما الانحدار العام في هذا الإقليم الجنوبي فهو يتجه من الغرب الى الشرق، كما تبينه ارتفاعات الجبال التالية :

١ ـ جبال العين الصفراء، وأعلى قلة (قمة) بها تصل إلى (٢٢٣٦ م) وهي قمة جبل عيسى .
٢ ـ جبال عمور، وبها قلة (قمة) جبل الطويلة، التي يصل ارتفاعها الى (١٩٣٧ م) ، وبوبرقة (١٩٥٩م).
٣ ـ جبال أولادنايل : ويصل ارتفاعها حتى (١٥٠٠ م) بالقرب من الجلفة .

ويظهر ذلك بوضوح أن الانحدار يأخذ في التناقص، وتأخذ الجبال في الضمور، وهي تتجه من الغرب الى الشرق، حتى تكاد تختفي عند « بسكرة » التي تسمى عتبة الصحراء، أو الممر الطبيعي بين الشمال والجنوب. ولهذا مدت السكة الحديدية التي تربط بين « توقرت » و«قسنطينة» بهذه المدينة. وخلال هذا الممر الطبيعي، الى الشرق من مدينة بسكرة، يعود الارتفاع مرة أخرى بصورة مباغتة، ويشتد الانحدار، وتظهر جبال الأوراس الشامخة التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها (وهي قمة أم كلثوم- ٢٣٢٩م) وهي بذلك أعلى قمة جبلية في شمال الجزائر، لا في الجزائر كلها، حيث أن جبل تاهت بالهوقار يبلغ ارتفاعه (٢٩١٨ م) وهو بذلك أعلى جبل في الجزائر كلها. وتتكون جبال الأوراس الواسعة من صخور جيرية شديدة الارتفاع، تتلقى

كمية كبيرة من الأمطار، اذا ما قورنت بجبال العين الصفراء.
وتتخلل جبال الاوراس أودية متجهة نحو الجنوب، تحمل معها المفتتات الصخرية، وتتبع في سيرها الالتواءات المقعرة، مثل وادي عبدي ووادي الأبيض، اللذين يجريان في الأطراف المحدبة لجبلي أحمر خدو والأزرق. وتمثل جبال الأوراس بارتفاعها الشاهق، كتلة جبلية حاجزة بين الصحراء ونوميدية. ويأخذ عامل الارتفاع في التناقص مرة أخرى كلما توغلت هذه الكتلة شرقاً. فجبال النمامشة لا يزيد ارتفاعها على ألف وخمسمائة متر. وكذلك جبال تبسة. وينعكس عند جبال الأوراس الاتجاه العام لسلسلة الأطلس الصحراوي التي تأخذ في الاندماج مع الأطلس التلي بالتدريج، إلى أن تقضي عليها عند منطقة « القالة » وترمي بها عرض البحر. ويتحول اسمها الى «جبال خمير» في الاراضي التونسية، ثم جبال « مقعد » الواقعة في أقصى الشرق. ومن الملاحظ على سلسلة الأطلس الصحراوي، أنها ترتفع فجأة عند التقائها بالصحراء. أما عند خط التقاء الأطلس الصحراوي بأراضي النجود، فيبدأ الارتفاع بالتدريج من الشمال إلى الجنوب، متمثلاً أولاً في الراوبي، ثم الجبيلات، ثم الجبال الشاهقة. وتتميز الجهات الشرقية من الجزائر، بالجبال المعقدة القصيرة الامتداد. كما تتميز بعدم الثبات في الاتجاه العام. وظاهرة الانتقال من الروابي إلى الجبال، ومن الالتواءات المحدبة الى الالتواءات المقعرة. ومن الأحواض المغلقة الى السهول المفتوحة، وهذه هي الصفة السائدة في إقليم هضبة الأوراس وجبال مجردة.

٥ ـ اقليم الصحراء: تبلغ مساحة الصحراء الجزائرية (١,٩٨٧,٦٠٠) كيلو متر مربع، وبذلك تحتل مساحة قدرها

تسعون بالمائة تقريباً من المساحة الإجمالية للقطر كله، والبالغة (٢,١٩٥,١٠٠) كيلومتر مربع. والتركيب الجغرافي للصحراء أبسط من تركيب المنطقة التلية. إذ لا تظهر فيها الجبال المتقطعة، ولا المرتفعات المعقدة، ولا السهول الضيقة المحصورة، ولا الالتواءات الحديثة. ولكن الصحراء تضم بالمقابل السهول التحاتية الواسعة والأحواض المغلقة، والجبال بحافاتها الشديدة الانحدار، والعروق الرملية المتنقلة، ويمكن تقسيم الصحراء إلى أربع مناطق متباينة:

أولاً : **منخفض في الركن الشمالي الشرقي، تظهر به بعض الشطوط. مثل شط ملغيغ، الذي يقع دون مستوى سطح البحر بحوالي واحد وثلاثين متراً. فهو أخفض مكان بالجزائر كلها.**

ثانياً : **منطقة هضابية صخرية على الأطراف الشمالية وفي الوسط، مثل هضبة تادمايت، الى الشمال من عين صالح.**

ثالثاً: **سهول تحاتية تغطيها الرمال. وهي التي** تحتل أكبر مساحة **في الصحراء.**

رابعاً : **كتل جبلية مرتفعة في الركن الجنوبي** الشرقي، وهي جبال **الهوقار التي تبلغ أعلى قمة جبلية بها** (٢٩١٨م) وهي قمة تاهت بمرتفعات أتاكور إلى الشمال من مدينة «تامنراست». وأغلب جبال الهوقار ناتجة عن اضطرابات بركانية مازالت فوهاتها بارزة للعيان. والجبال هنا لا تأخذ أشكال السلاسل الممتدة، ولكن الأشكال المخروطية. ولقد أصابت حركة التوائية قديمة جداً إقليم الصحراء، وأدت هذه إلى التواء سلاسل جبلية من

الشمال الى الجنوب، ثم تعرضت الجبال لعملية النحت مدة زمنية كانت كافية لتحويل هذه الجبال القديمة إلى هضاب وسهول تحاتية، تغطيها رواسب حديثة من رمال أو صخور، أتت بها الرياح في أغلب الأحيان. ذلك أن عملية التجوية الآلية- الميكانيكية- الناجمة عن الفوارق الحرارية الشديدة بين الليل والنهار، أدت إلى تفكيك الصخور في منطقة الصحراء، وتحويلها الى جزئيات دقيقة يسهل على الرياح نقلها من هنا وهناك، وتحريكها من مكان لآخر، لتبني بها أشكالا هندسية من براخين وأهلة. وتبرز في الصحراء ثلاث ظواهر تضاريسية متباينة هي: ١-الحمادة. ٢-الرق. ٣-العرق. فالحمادة: هي الهضبة الصخرية التي تغطيها صخور جيرية ممتدة في شكل صفائح طباقية. ومن أهم الحمادات في الجهة الجنوبية الغربية «حمادة الذراع» على الحدود الجزائرية- المغربية. و«حمادة القلاب» على الحدود الجزائرية- الموريتانية. و«حمادة تادمايت» إلى الشمال من «عين صالح».

أما الرق: فهو سهل صخري، أو حوض منخفض ملأته السيول الجارفة بالرواسب الصخرية. وأخيراً - العرق: وهو يختلف عن الحمادة والرق في أنه سطح واسع الأطراف، تغطيه كثبان رملية تشبه أمواج البحر، جاءت بها الرياح من الحمادة أو الرق، وبهذا تكون رواسب العرق هوائية، والرق فيضية. وتحتل العروق مساحة كبيرة من الصحراء الجزائرية حيث تنتشر في كل من الجهات الشرقية والغربية. ففي الجهات الشرقية، يظهر العرق الشرقي الكبير الذي يمتد من وراء الحدود الجزائرية - التونسية الى المنخفض الذي يفصل بين هضبة « تادمايت » و « المنيعة ». ثم العرق الغربي الكبير الذي

يبدأ من « بني عباس » غرباً حتى هضبة « المنيعة » شرقاً . و « عرق الشيخ » و « عرق ايجيدي » على الحدود الجزائرية ـ الموريتانية .

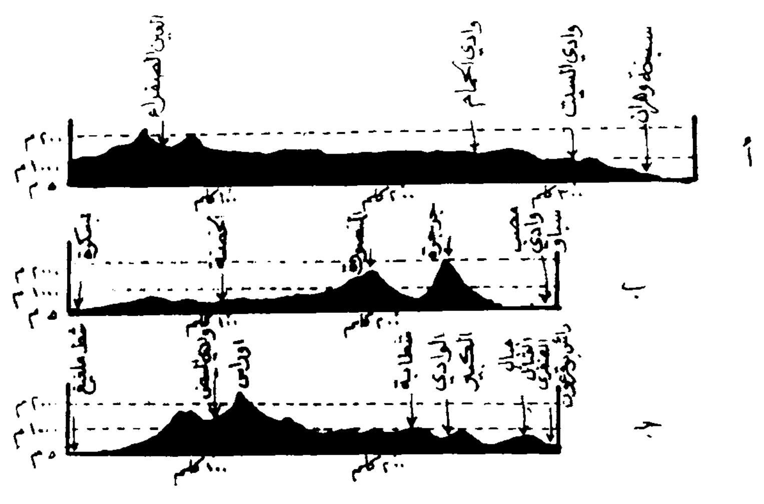
* * *

ب ـ وديان الجزائر

الوديان ـ كما هو معروف ـ هي المجاري المائية التي تتحكم فيها أربعة عوامل أساسية هي : المناخ والتضاريس والتربة والنباتات. وعلى ضوء هذه العوامل تتميز المجاري المائية الجزائرية بعدم انتظامها في تصريف المياه. ويعود سبب ذلك الى فصيلة الأمطار. ففي فصل الشتاء تنزل الأمطار في المناطق التي تأخذ الأودية منها ينابيعها. وهي أمطار غزيرة تتغذى منها الأودية، وتكثر مياهها، وترتفع حمولتها حتى تصبح سيولاً جارفة كثيراً ما تخرب الجسور وتعطل المواصلات. وفي فصل الصيف تنعدم الأمطار وتجف الأودية، وتظهر بأسرتها الرمال والحصى والجلاميد وقليل من الماء، إن كان بالوادي ينابيع. ولا تصل هذه المياه القليلة الى المصبات إلا بعد مشقة، نظراً لشدة التبخر التي ترتفع في فصل الصيف، ولعملية التسرب الجانبي للمياه في التكوينات الرملية المنفذة في مناطق جريانها. وتسير معظم أودية الجزائر في مناطق شديدة الانحدار، قريبة من مصباتها. ولهذا كانت أقرب الى السيول منها الى الأنهار، حتى كأن إطلاق كلمة أودية ينطبق عليها تماماً، لأنها تفيض وتزيد يوماً، وتهدأ شهوراً بسبب شدة الانحدار الذي يزيد من سرعة المياه الجارفة، ورقة الغطاء النباتي وانعدامه في بعض الأحيان. مما يساعد المياه على تشكيل السيول الجارفة للتربة وما بها. وتنقسم الأودية الجزائرية حسب الأماكن التي



أودية إقليم وهران



الانحدار العام لجبال الجزائر

تفرغ فيها شحنتها إلى أودية تصب في البحر المتوسط، وأودية تصب في أحواض مغلقة بمنطقة النجود، وأودية تصب في الصحراء :

ب ـ ١ ـ **الأودية الشمالية** : **وهي** الأودية التي تصب في البحر الأبيض المتوسط (وتسمى بالأودية التلية) **وهي** تتميز بما يلي :

* **متجهة من الجنوب إلى الشمال في أغلب قطاعاتها.**
* **ـ تأخذ منابعها من سلسلة الأطلس التلي ـ ما عدا وادي الشلف .**
* **ـ مناطق صرفها أوفر مطراً وأغنى نباتاً .**
* **ـ يأخذ الوادي أسماء مختلفة باختلاف المناطق التي يمر بها .**

مثال ذلك وادي الشلف الذي يسمى بالوادي الطويل عند مروره بالنجود، ويسمى « بوادي الملاح » عند انحداره من « جبال عمور » ووادي السيق الذي يسمى مجراه الأعلى « بوادي مكاره » . ووادي يسر الذي يسمى مجراه الأعلى « بوادي الملاح » . وأهم هذه الأودية من الغرب الى الشرق :

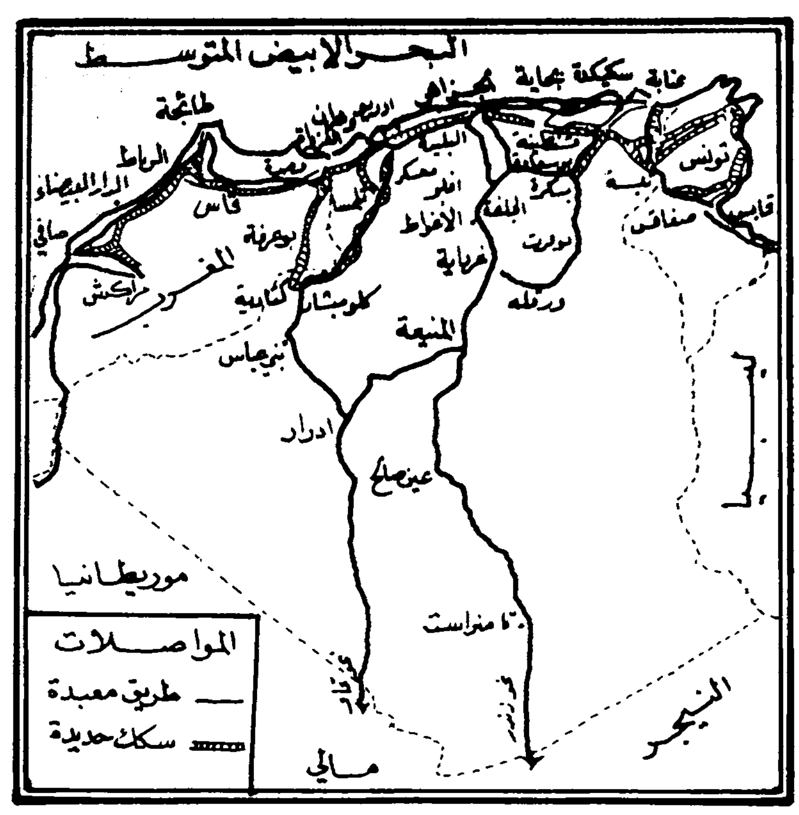
١ ـ **وادي تغنة** (أو تافنه) . وهو ينحدر من جبال تلمسان، ومن مرتفعات تزيد على الف وخسمائة متر . ويرفده من الجهة اليمنى وادي يسر، ومن الجهة اليسرى وادي أسلي . ويصب وادي تافنه الى الغرب من مدينة بني صاف، بعد أن يخترق جبال أترارة، ويبلغ طوله (١٧٠) كيلو متراً .

٢ ـ **وادي السيق والحمام** .ويسمى الأول بوادي مكارة عندانحداره من جبال الضاية على ارتفاع ألف ومائتي متر عند رأس الماء . ويتصل

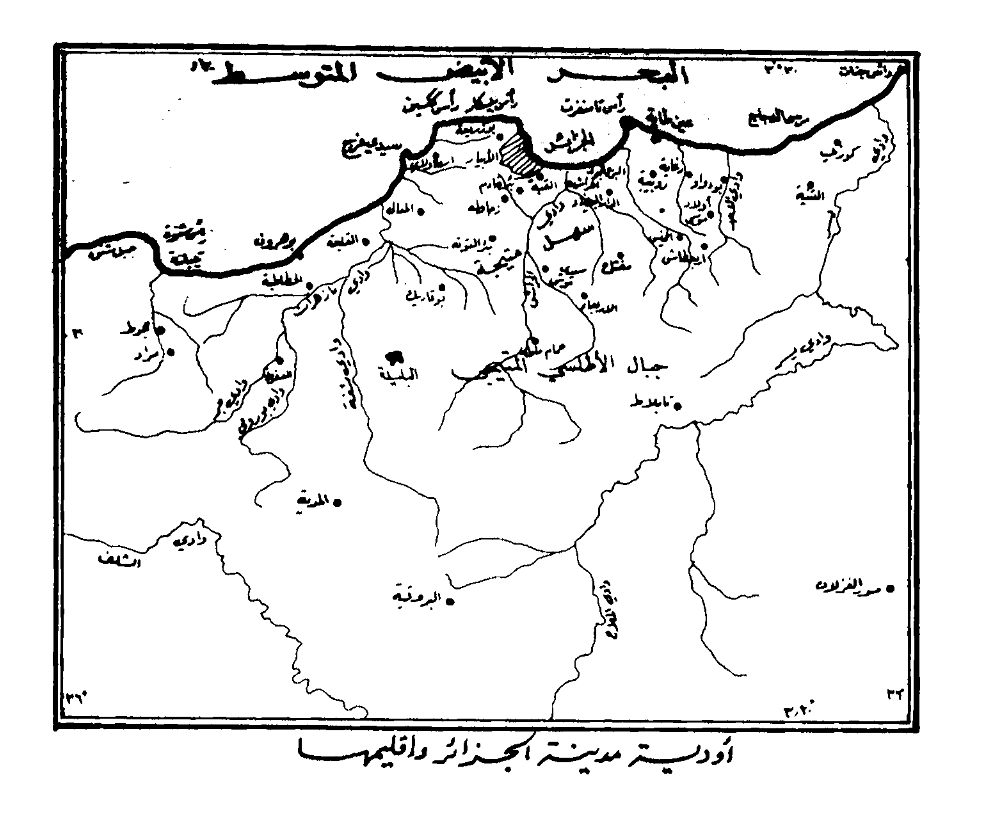
بوادي الحمام في منطقة تكثر بها المستنقعات تسمى بمنطقة المقطع. وينطلق وادي الحبرة أو الحمام من « بوسي » على ارتفاع ألف ومائتي متر أيضاً بجبل سعيدة. ولا تصل مياه السيق والحمام الى البحر الا بعد مشقة، نظراً لانخفاض المنطقة بالقرب من مصبهما. وكانت هذه المنطقة تمثل خليجاً بحرياً، وما زالت الرواسب القارية لم تعمل على ملئه وتسوية سطحه. ويبلغ طول كل من وادي الحمام والسيق (٢٥٠) كيلو متراً.

٣ - **وادي الشلف** : وهو أطول واد بالجزائر، يبلغ طوله (٧٠٠) كيلو متر، ويمد لسانه حتى سلسلة الأطلس الصحراوي، ليأخذ منابعه بالقرب من مدينة « آفلو » ويسمى بالوادي الطويل عند مروره باقليم النجود، من الجنوب الى الشمال، ويحول اتجاهه من الشرق إلى الغرب عند اصطدامه بجبال زكار، فاصلاً بذلك بين جبال الونشريس في الجنوب وجبال الظهرة في الشمال. ولما كانت المنطقة التي يصرفها وادي الشلف واسعة، فإن المياه لا تنقطع من سريره، وترفده عدة أودية ثانوية من الجنوب والشمال، ومن أهمها في الجنوب « النهر الواصل » الذي يصرف هضبة السرسو، ووادي دردر والفضة، وسلي، وريو، ومينا، وكلها تنحدر من جبال الونشريس، ما عدا وادي مينا الذي يأخذ منابعه من جبال فرنده. ولما كان وادي الشلف أوفر ماء من بقية أودية الجزائر، فقد بنيت عليه سدود كثيرة لري سهول الشلف، الممتدة من منطقة مليانة حتى مستغانم. ومن أهم هذه السدود « سد الغريب » وهو أعظم سد في القطر الجزائري، حيث يمكنه أن يخزن (٢٨٠) مليون متر مكعب.

٤ - **وادي الشفة** : وينحدر من جبال الأطلس المتيجي، كما يبلغ



خطوط المواصلات في الجزائر



أودية مدينة الجزائر وإقليمها

طوله (٢٠٢) كيلو متر .

وهو واد انطباعي بالقرب من مصبه الى الغرب مدينة « سيدي فرج » ويرفده من الجهة اليسرى « وادي دجر » الذي ينحدر من جبال زكار. ويلتقي الواديان بالقرب من مدينة وادي العلايق في سهل متيجة. ومن هنا يتحول اسم الوادي الى وادي مازفران، يشق طريقه خلال الحافة الجبلية الساحلية التي تفصل البحر عن سهل متيجة. وهي حافة ذات التواء محدب، تسير وشاطىء البحر من شرشال حتى الجزائر العاصمة .

٥ ـ وادي يسر : وينبع من جبال تيطري على ارتفاع (١٢٠٠ م) بالقرب من البروقية، ويصب بالقرب من مدينة « دلس » ويبلغ طوله (٢٣٠) كيلو مترا. ويشق طريقه في خط قائم الزاوية مع اتجاه جبال التل. وهو واد انطباعي في اكثر اجزائه، ويظهر هذا الانطباع بصورة خاصة في منطقة الأخضرية، حيث يجري الوادي وسط الصخور الصلبة من نايس وغرانيت. ولولا غزارة الأمطار التي يزيد متوسطها على (٨٠٠م م) في منطقة حوض الصرف لما استطاع هذا الوادي أن يشق طريقه وسط الجبال، وأن ينحت بها جدراناً يزيد ارتفاعها على المائة متر في خانق الأخضرية. ومن السهل ملاحظة عملية التوازن عند مصب وادي يسر، حيث انخفضت الأرض مسافة مائتي متر تقريباً منذ عصر البلايوسين، بسبب تراكم الرواسب التي يلقي بها وادي يسر عند مرفضه، فازداد بذلك الثقل على طبقة السيما واختل توازنها، فخسف فيها الجزء الأسفل من قاعدة المصب، وقد أدى هذا الى ارتفاع مناطق أخرى مجاورة لها لإعادة التوازن .

٦ ـ **وادي الصومام : (ويسمى بوادي الساحل أيضاً) : وهو** ينبع من جبال البيبان، ويرفده من الجهة اليمنى ـ وفي أقسامه العليا ـ وادي بوسلام الذي يلتقي به بالقرب من مدينة « أقبو » ويشتد انحدار وادي الصومام من منبعه الى مدينة البويره، ثم يأخذ الانحدار في القلة حتى مصبه في هليج بجاية. ويجري وادي الصومام في سهل ضيق للغاية، ويبلغ طول الوادي (٢١٠) كم.

٧ ـ **الوادي الكبير، ويسمى بوادي الرمل (وقديماً وادي امبزاغة)** ويبلغ طوله حوالي (٢٥٠) كيلو متراً. ويأخذ منابعه من جبال فرجيوه بالقرب من جميلة. ويصرف السفوح الجنوبية لجبال البابور، ثم يتجه من الغرب الى الشرق حتى يصل الى إقليم قسنطينة، فيتحول اتجاهه من الجنوب الى الشمال، ثم يخترق جبال نوميدية الجيرية، ليصب الى الشرق من مدينة جيجل بحوالي (٤٥) كيلو متراً.

٨ ـ **وادي الصفصاف** : ويبلغ طوله مائة كيلو متر، يصب في خليج سكيكدة، وينبع من منطقة « سمندو ».

٩ ـ **وادي السيبوس** : ويمد لسانه حتى الجبل الأزرق الواقع على ارتفاع (١١٩٥م) **بالقرب من «عين البيضاء» ويسمى مجراه الأعلى** بوادي الشرق. يرفده من **جهاته اليمنى واليسرى عدة روافد من أهمها** : وادي زناتي الذي ينحدر من جبل « **أم سطاس** » **بالقرب من « عين** عبيد ». ويروي وادي السيبوس **سهل عنابة، وهو لم يأخذ مجراه** النهائي في هذا السهل حتى الآن، **حيث يظهر وقد هجر مجراه** القديم وانخرق الى الغرب مسافة سبعة كيلومترات، بدليل الأذرع الميتة أو المجاري المهجورة التي تنتشر بالقرب من مجراه الأدنى الحالي. ويبلغ

طول وادي السيوس (٢٣٢) كيلو متراً .

١٠ ـ **وادي مجردة** : وينحدر من جبال مجردة بالجزائر، ثم يمر بالأراضي التونسية، ليصب في خليج قرطاجنة بتونس. تلك هي أهم أودية الشمال، وهي كلها تصب في البحر الأبيض المتوسط. وقد بني على معظمها سدود لخزن المياه وري السهول الفيضية التي تجري بها .

* * *

ب ـ ٢ ـ **أودية النجود** : وهي أودية الأحواض الداخلية، وتتميز بقصرها. وشدة ذبذبة جريانها، وقلة مياهها عن الأودية السابقة، لأنها تصرف مناطق أقل مطراً من مناطق صرف الأودية التلية. وتسير أودية النجود في اتجاهات مختلفة، حاملة معها في فصل الأمطار رواسب كثيرة بها نسبة عالية من الأملاح التي تقذف بها في الأحواض المغلقة (أي في الشطوط أو الزواغز). وتشتد عملية التبخر في المنطقة خلال فصل الصيف، وتقل مياه الأحواض التي تتبخر تاركة وراءها رواسب ملحية تزيد من ملوحة مياه الشطوط. وتجف أغلب أسرة الأودية تماما ولا تبقى بها قطرة ماء في فصل الصيف. ومن بين الأودية الحوضية تلك التي تنصرف الى شط الحضنة، قادمة من جبال تيطري وأولاد نائل والحضنة. ونذكر منها وادي بوسعادة وحام ومسيلة أو القصب وبومدو وبريكة. وكل هذه الأودية تصب في شط الحضنة الذي يقع على ارتفاع (٤٠٠ م) فوق مستوى سطح البحر. ويغطي مساحة تزيد على (٢٧) ألف هكتار. وشط الحضنة أكثر ماء من بقية شطوط النجود، لأن الأودية التي تمده بالمياه كثيرة وطويلة نسبيا، ومنها ما تجري بها المياه طوال السنة. أما بقية الشطوط



البداية ـ اتقان استخدام السلاح

فأوديتها قصيرة جدا. وهي جافة في أغلب أيام السنة. ولهذا كان الشط الشرقي والغربي يمثلان حلقات منفصلة من السبخ يجف أغلبها في فصل الصيف، وتظهر بقاعها الحمأة والرواسب الملحية الطينية اذا اشتدت عملية التبخر.

. * . * . * .

ب ـ ٣ ـ **الأودية الصحراوية** : وهي التي تجري الى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي، تصب في بعض الأحيان في الشطوط، وتختفي أحياناً وسط الرمال، وتتميز بالآتي :

أولا : ليس لها جوانب مضبوطة ولا حدود معينة.

ثانياً : عديمة الانتظام وفجائية الفيضان، خلاف ما يحدث كل سنة في أودية المنطقة التلية والشمالية بصفة عامة. إذ أن الفيضان لا يحدث إلا مرة واحدة في كل عدة سنوات في الأودية الصحراوية.

ثالثاً : أنها من نوع الأودية المهاجرة، ولهذا يمكن أن يطلق عليها تجاوزاً اسم الأودية.

رابعاً : أنها رحمة إلهية لما تخزنه من مياه فيها تحت التربة، ونقمة طبيعية لما تسببه من اضرار إذا فاضت، حيث إنها تأتي على المنازل والخيام. وفي بعض الأحيان على القطعان والمزروعات.

وتنقسم الأودية الصحراوية حسب مناطق منابعها إلى أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي، «وأودية الهوقار». فأما الأولى، فتنحدر من السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي،

وتتجه من الشمال الى الجنوب، ما عدا وادي جدي الذي يسير على طول أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي. ومياه أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي، تغـوص في الرمال الصحراوية، لتنبجس مرة أخرى في شكل عيون طبيعية، أو آبار ارتوازية عليها قامت واحات النخيل في إقليم بني مزاب والهوامش الشمالية الصحراوية. ومن أهم هذه الأودية « وادي جدي » الذي يأخذ منابعه بالقرب من مدينة « أفلو » بجبال عمور. وهذه الجبال تعتبر منطقة تقسيم المياه بين « وادي جدي » الى الجنوب، والوادي الطويل الى الشمال، ويجري « وادي جدي » في منطقة إنكسارية نتيجة للحركة الالتوائية التي أصابت سلسلة الأطلس الصجراوي، متجهاً من الجنوب الغربي نحو الشمـال الشرقي مـاراً بمدينـة « الأغواط » و « أولادجلال » الى أن يصل الى « شط ملغيغ » الواقع دون مستوى البحر ب (٣١ متراً). ويضاهي وادي جدي في طولـه وادي الشلـف، كما يصرف جـزءاً كبيراً من مياه السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي. وبذلك فهو أوفر الأودية الصحراوية ماء. ومن الأودية الصحراوية القادمة من الشمال الى الجنوب نجد « وادي العرب » و « الوادي الأبيض » المنحدر من جبال الأوراس. ويصبان في منخفض « ملغيغ » وهو شط واسع الأرجاء، تحيط به الكثبان الرملية، وتظهر على حوافه النباتات الصحراوية المتنوعة، وتغمره المياه في فصل الشتاء.

وينحدر من الجهات الجنوبية الغربية لجبال الأطلس الصحراوي وادي زرقون وسوقر والخبيز والناموس. وأهمها وادي السـاورة الذي يرفده وادي زوسغانة من الجهات اليمنى، وأودية « غير » من الجهات اليسرى. ويسمى « وادي الساورة » بطريق النخيل، حيث قامت

عليه حضارات قديمة، ما زالت تشهد بها تلك الآثار المنتشرة هنا وهناك على طول الوادي، من كولومب بيشار حتى مصبه بسبخة « المخرقن » الى الجنوب من عين صالح في قلب الصحراء. ويعتبر وادي الساورة في الوقت الحالي شريان الحياة، تنتشر على امتداده واحات النخيل والمدن التي تعتبر محطات للمسافرين. وستزداد أهمية هذا الوادي بعد مد الخط الحديدي. وإتمام بناء سد « غير » لري منطقة « عبادلة ». أما القسم الثاني من الأودية الصحراوية، فهي المنحدرة من جبال « الهوقار » وتظهر على شكل شبكة منحدرة في كل الاتجاهات، من أهمها : « وادي تمنراست » الذي ينبع من مدينة « تمنراست » عاصمة « الهوقار ». ووادي تافاست، الذي يربط بين قلب الهوقار وجمهورية النيجر. ووادي جارات الذي يصرف مياه السفوح الشمالية الغربية لجبال أفتيس بهضبة الهوقار، ويلفظ ما يجمعه من مياه في سبخة « المخرقن ». وتتميز أودية « الهوقار » بفيضانها في فصل الصيف، لأن الأمطار تنزل في هذا الاقليم في فصل الصيف.

* * *

ج ـ النطاقات المناخية : لما كانت الجزائر تمتد على مساحة واسعة، فإن عناصر المناخ من رياح وأمطار وحرارة، تظهر بها متباينة ومختلفة من الشمال الى الجنوب، ومن مدينة الجزائر بالساحل حتى مدينة « تامنراست ـ بالهوقار ». ويمكن تقسيم الجزائر الى ثلاثة أقاليم مناخية متباينة، ممتدة على شكل نطاقات من الغرب الى الشرق، ومترتبة من الشمال الى الجنوب كالآتي : مناخ البحر الأبيض المتوسط، ومناخ الاستبس، ومناخ الصحراء.

١ ـ **مناخ البحر الأبيض المتوسط**: ويسود في المنطقة الشمالية، وفوق سلسلة الأطلس التلي من تلمسان حتى مدينة سوق أهراس، بل يتوغل في الأراضي التونسية حتى مدينة تونس، وفي الأراضي المغربية حتى مدينة طنجة. ويحده جنوباً خط (لانزوفيتس ٣٥٠ مم) وهو الخط الفاصل بين مناخ الاستبس في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض في الشمال. ويتميز هذا الأخير بفصلين متباينين، أحدهما مطير دافىء طويل، وهو فصل الشتاء، والثاني فصل جاف حار قصير وهو فصل الصيف. ويكاد الجو يكون صافياً طول السنة مع اعتدال في الطقس مما جعل من هذه المنطقة مشكاة سحرية وروضة غناء، ذات غابات مخضرة، وأشجار صنوان وغير صنوان من بلوط وصنوبر وعرعار وأرز وريحان. وقد ساعدت هذه البيئة الطبيعة الجميلة منذ القديم على ظهور حضارات عريقة كانت ممتدة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط (الحضارة الفينيقية) حيث صفاء الجو ونور الشمس وسكون الطبيعة، كل ذلك مما ساعد الانسان على التفكير والابداع وإنتاج حضارة رائعة لا زالت ترسل بظلالها حتى اليوم .

٢ ـ **مناخ الاستبس** : تتراوح أمطاره بين (٣٥٠ مم) و (٢٠٠ مم) ويمتد الى الجهات الجنوبية من المناخ السابق، ويشمل اراضي النجود والأطلس الصحراوي. ويلاحظ هنا المناخ القاري بوضوح من فوارق حرارية يومية وشهرية متطرفة، وأمطار قليلة، ورطوبة نسبية منخفضة. ويعتبر المناخ الاستبسي مناخاً انتقالياً بين مناخ الصحراء في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وتسود به الحشائش القصيرة والفقيرة، تتخللها في بعض الأحيان الشجيرات المتباعدة بعضها عن بعض. وأهم هذه الحشائش : الشيح ونباتات الحلفاء التي تعتبر مصدراً من مصادر الثروة الجزائرية، إذ منها يصنع

أجود أنواع الورق، كما تدخل في صناعة بعض الأقمشة والصناعات المحلية .

٣ ـ **مناخ الصحراء** : ويحتل أكبر مساحة في القطر الجزائري، إذ يمتد من جبال الأطلس الصحراوي شمالاً حتى هضاب الهوقار جنوباً. وبذلك يشمل مساحة تزيد على التسعين بالمائة من المساحة الاجمالية للبلاد. وخط الايزوفيتس (٢٠٠ مم)، هو الحد الفاصل بين المناخ الصحراوي ومناخ الاستبس.فأمطار الصحراء تقل في أكثر مناطقها عن ٢٠٠ مم، وتنزل في فصل الصيف على هضاب الهوقار والهوامش الجنوبية، وفي فصل الشتاء على الهوامش الشمالية. والرطوبة النسبية منخفضة جداً، والفوارق الحرارية مرتفعة جداً. وكذلك الحرارة اليومية التي تصل الى (٥٦) درجة مئوية في بعض الأحيان، وهو أعلى رقم في العالم سجله مرصد « تندوف ». ونتيجة لهذه الظروف الطبيعية القاسية، كانت الصحراء بلاد الغلاة والبيداء والمليع، تكاد تختفي فيها الحياة النباتية تماماً، وبايجاز، مناخها متطرف للغاية .

د ـ **الغطاء النباتي** : تغطي الغابات والحراج مساحة كبيرة بالجزائر تقرب من السبعة ملايين هكتار، أغلبها في الاقليم الشمالي. ويوجد بالجزائر حوالي ثلاثة آلاف نوع من النباتات، أغلبها أصلية، والقليل منها مستورد من الخارج، مثل اشجار الكافور المستوردة من أستراليا، والهندي أو التين الشوكي المستوردة من المكسيك. وتنقسم السنة النباتية الى فصلين: أحدهما فصل الصيف أو (فصل الجفاف) تسقط الأشجار فيه أوراقها، وتختفي فيه النباتات الصغيرة. ولهذا يعتبر فصل النوم أو الراحة، يتوقف فيه النشاط النباتي. أما الفصل الثاني، فهو فصل الشتاء، تسقط فيه الأمطار، وفيه تورق الأشجار، وتخضر

الحشائش، وتزهر الأغصان، وتخرج البراعيم، ولهذا يسمى فصل النمو أو فصل الإنبات. ويخضع الغطاء النباتي لشروط طبيعية معينة تتحكم في وجوده وكثافته ونوعيته، ومن أهم هذه الشروط : المطر، والحرارة، والتربة، والضوء، والرياح، والموقع، والتضاريس، فلهذا نظهر النباتات في الجزائر وهي مختلفة من مكان لآخر تبعاً لاختلاف الظروف المناخية السابقة الذكر.

ففي الإقليم الشمالي تظهر الحراج من ضرو، وريحان، وحمايرة، وعلانق، ودوم، عند حضيض الجبال. وفي المناطق القليلة الأمطار والارتفاع، تظهر غابات الفلين على السفوح التي يقل ارتفاعها عن (١٢٠٠ مم) والتي تظهر بها التربة الرملية بالخصوص. أما إذا اشتد الارتفاع، وزادت البرودة، وتنوعت التربة، فتظهر غابات الصنوبر والأرز والعرعار.والسفوح المقابلة للرياح الممطرة أوفر نباتاً وأشجاراً من السفوح الواقعة في ظل الرياح الممطرة. وفي إقليم الاستبس، أو النجود، الذي تقل أمطاره عن (٣٥٠ مم) سنوياً، نجد الحياة النباتية فقيرة، وتختفي الغابات الكثيفة لتحل محلها الحراج والمراعي الواسعة. أما في الجنوب، حيث تكاد تنعدم الأمطار، فيكاد يختفي الغطاء النباتي تماماً. وكثيراً ما يقطع المسافر مئات الكيلو مترات دون أن يقع بصره على نبتة عشب أو قطرة ماء.

تظهر بعد ذلك العلاقة الوثيقة بين المطر والنباتات عند الأخذ بمخطط بياني مقارن لأطوال النباتات الطبيعية، ومعدلات سقوط الأمطار، حيث يظهر أن ارتفاع النباتات (طولها) يصل الى عشرين متراً أو أكثر في الإقليم الذي تزيد أمطاره السنوية على (٣٥٠ مم). بينما لا يزيد ارتفاع هذه النباتات (طولها) على بضعة أمتار في الإقليم

الذي تتراوح أمطاره بين (٣٥٠ مم) و (٢٠٠ مم) سنويا . أما الاقليم الذي تتراوح أمطاره بين (٢٠٠ مم) و (٥٠ مم) سنوياً، فلا تظهر فيه إلا النباتات الشوكية القصيرة جداً. وعلى هذا الأساس، يمكن تقسيم الجزائر الى ثلاثة أقاليم نباتية ممتدة من الغرب، الى الشرق، على شكل نطاقات، ومرتبة من الشمال الى الجنوب، وهي : إقليم البحر الأبيض المتوسط، إقليم الاستبس، إقليم الصحراء .

د - ١ - إقليم البحر الأبيض المتوسط: وتحده جنوباً السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي، وشمالاً مياه البحر الأبيض المتوسط، ويتميز هذا الاقليم بفصل حار وجاف وقصير نسبياً، يمتد من شهر حزيران - يونيو - حتى شهر تشرين الأول - اكتوبر - وفصل رطب دافىء طويل، يدوم من تشرين الأول - اكتوبر - حتى أيار - مايو - . وتتراوح أمطاره السنوية بين (١٠٠٠ مم) و (٣٥٠ مم) وتربته جيدة، وهو أوفر المناطق نباتاً، وأغناها نوعاً، وأهم غاباته هي :

* - غابات أشجار (الفلين)[1] التي يتراوح ارتفاعها (طولها) بين الستة والاثني عشر متراً. وتظهر أشجار الفلين فوق التربة الرملية، كما لا تتحمل البرودة المتطرفة. ولذا تقتصر على المناطق التي لا يزيد ارتفاعها على (١٢٠٠) م. وهي تظهر على جبال الظهرة وزكار والسفوح الشمالية لجبال تلمسان، والونشريس والأطلس المتيجي وبالقرب من بجاية. وأهم غابات الفلين بالجزائر هي الممتدة من جيجيل غرباً حتى القالة شرقاً على طول الساحل. وتمتاز أشجار الفلين بعروقها الطويلة التي تغوص عمودية في الأرض، وأغصانها المتشعبة

---

(١) أشجار الفلين: (CHÊNES«LIÈGES)

وغير المستقيمة، وأوراقها الدائرية الشكل والمغلوقة. وتزهر شجرة الفلين بعد أن تبلغ من العمر الستين سنة، وتعمر القرون العديدة حتى ينهار وسط جذعها، وتظل القشرة الخارجية محافظة على حياة الشجرة، الى أن تهب ريح قوية تأتي عليها، إن لم تسقطها يد الانسان. وتقل مساحات غابات الفلين في الجزائر حالياً عن (٤٤٠) ألف هكتار، ذلك أن الاستعمار الإفرنسي عمل خلال حرب التحرير على إحراق مساحات واسعة من الغابات الساحلية. وكانت الجزائر قبل هذه الحرب، ثاني دولة عالمية في مساحة غابات الفلين، لا تفوقها الا البرتغال .

* ـ **غابات أشجار الصنوبر** : وتتميز بأوراقها الابرية وثمارها المخروطية الشكل. وهي تغطي مساحة واسعة من شمال الجزائر تزيد على (٧٠٠) ألف هكتار. وتظهر في جبال التل والأطلس الصحراوي، وهي على أنواع، منها غابات الصنوبر البحري التي تتطلب أمطاراً كثيرة ومرتفعات متوسطة. ولهذا يظهر الصنوبر البحري على الساحل الشرقي، وبالخصوص في منطقة « جيجل » و « رأس بوقرعون » وهي تغطي مساحة لا بأس بها. ومن غابات أشجار الصنوبر هناك نوع « الصنوبر الحلبي » فوق المرتفعات التي تزيد على (١٣٠٠ م) فوق جبال الساحل وجبال الأطلس الصحراوي ،ويغطي مساحة واسعة من الجبال التي يصل ارتفاعها حتى (٢٢٠٠ م) ويتحمل الصنوبر الحلبي الظروف المناخية القاسية، من أمطار يقل متوسطها السنوي عن (٣٠٠ مم) سنوياً، وتربة جيرية أو رملية أو مختلطة، ولهذا فإننا نجده في غرب الجزائر أكثر منه في شرقها، لأن غرب الجزائر أقل مطراً من شرقها. وتتميز أشجار

« الصنوبر الحلبي » بأوراقها الابرية الطويلة التي تخرج في فصل الشتاء، ولا تسقط الا بعد أربع سنوات، وثمارها بطيئة النضج، وجذوعها مستقيمة، واذا شقت خرج منها سائل كثيف يتجمد بعد مدة « هو الصمغ » الذي يدخل في صناعة الصباغة، وأخشاب الصنوبر معروفة بجودتها واستخداماتها الكثيرة .

* ـ غابات أشجار (البلوط)[1] ويبدأ ظهورها على ارتفاع (٤٠٠ م) وتمتد حتى ارتفاع (١٧٠٠ م) فوق الأطلس التلي . أما في جبال الأوراس فتظهر على ارتفاع (١٩٠٠ م). وتتطلب أشجار البلوط أمطاراً كثيرة، وتربة رطبة، وهي تظهر على جبال تلسمان والونشريس وديرة وبابور ونوميديا . وتغطي مساحة تقرب من (٥٠٠) ألف هكتار .

* ـ غابات أشجار (الأرز)[2] أو غابات الجبال الشاهقة، لأن أشجار الأرز لا توجد الا في المناطق التي يتراوح ارتفاعها بين (١٣٠٠ م) و (٢٢٠٠ م) كجبال الونشريس وثنية الأحد والبليدة وجرجرة والاوراس وبوطالب . وتغطي مساحة تزيد على (٣٠) ألف هكتار. وأشجار الأرز أضخم وأطول أشجار الغابات الجزائرية، تعمر السنين الطوال، وتتطلب أمطاراً وفيرة، وشتاء بارداً، وصيفاً معتدلاً . وهذه الظروف المناخية جعلت أشجار الأرز تهجر الجبال الغربية بوهران وجبال الأطلس الصحراوي .

* ـ غابات أشجار الزيتون : وتحتل السفوح القليلة الارتفاع، بين الألف والمائة متر ، فوق التربة الرملية، التي تلائم بالخصوص

---

(١) البلوط: (CHÊNES VERTS)

(٢) الأرز: (CÈDRES)

أشجار الزيتون المختلطة بشجيرات الضرو، والعلائق، والحمايرة وبوحداد، وسيسنو، والريحان، والدوم. وبهذا الاختلاط تكون غابات أشجار الزيتون غطاء نباتياً متشابكاً يصعب اختراقه، لكن رائحة أشجاره المتنوعة تنعش الألباب، وتذكي القرائح، وتبعث بالراحة والسرور في الأنفس، في كل فصل من فصول السنة، وبالخصوص في فصل الربيع الذي تزهر فيه الأشجار والشجيرات، وتتوالد فيه الطيور، وتكثر فيه الينابيع المتدفقة. وتمتاز أشجار الزيتون بأوراقها القصيرة السميكة، وتكون في اتجاه مائل بالنسبة للشمس، وهي صلبة ذات لون أخضر فاتح بالجهة العلوية، وفضية بالجهة السفلية المقابلة لسطح الأرض، ومغطاة بطبقية شمعية تقيها شدة التبخر في فصل الصيف. ولعل أهم ما يميز مناخ البحر الأبيض المتوسط هو أشجار الزيتون التي تظهر حيث يظهر هذا المناخ، ولهذا يمكن اعتبارها الحد الفاصل لإقليم نباتات البحر الأبيض المتوسط.

د - ٢ - **اقليم الاستبس**: ويمتد الى الجنوب من إقليم البحر الأبيض المتوسط، وهو إقليم انتقالي بين الصحراء في الجنوب، والتل في الشمال. وبحكم موقعه، فإن آثار الانتقال ظاهرة بوضوح على تخومه الشمالية والجنوبية، إذ تظهر أشجار الزيتون عند تخومه الشمالية، وشجيرات الدرين عند تخومه الجنوبية.

تقل الأمطار نسبياً في اقليم الاستبس ويزداد الجفاف، وتأخذ الفوارق اليومية والفصلية في الارتفاع، كما تتزايد الذبذبات المطرية وضوحاً، وبذلك يأخذ المناخ القاري في الظهور، وقد أثر هذا المناخ المتطرف في الحياة النباتية. فبدل الغابات التلية، تظهر بأرض النجود الشجيرات المتباعدة بعضها عن بعض، وتظهر الحشائش القصيرة التي

تنبت في فصل دون آخر، ولا يرجع فقر المنطقة بتاتاً الى قلة الأمطار فقط، ولكن إلى فقر التربة أيضاً، حيث تكثر السبخ في هذا الاقليم، وتسود به التربة الملحية التي لا تساعد على الحياة النباتية، والأشجار بالخصوص. وأهم نباتات إقليم النجود: الحلفاء، والسدرة، والبطوم والشيح، والدرين، والكرار، والطرفة أو الثل. أما الحلفاء فهي أشهر نباتات النجود، يبلغ ارتفاعها (طولها) حوالي المتر، ولا تحتمل الرطوبة الكثيرة، وتقنع بما يقرب من (٣٠٠ مم) من الأمطار سنوياً، واذا زادت الأمطار على (٥٠٠ مم) أضرت بالحلفاء التي تختفي ليحل محلها «الديس» الذي يزيد طوله على المتر، وله أوراق ابرية الشكل، حرشاء، تخدش لامسها، ويظهر فوق جبال النجود والتل على السواء. ومن نباتات النجود «الدرين» الذي يظهر فوق التربة الرملية. و«الشيح» فوق السهول الفيضية. و«السنار» فوق التربة الطينية. وأنواع أخرى من النباتات تظهر فوق التربة الملحية الشطية، وتظهر على حافات المنخفضات من السبخ. والكثير منها تعافه حتى المواشي نظراً لشدة حموضتها وملوحتها أو مرارتها. أما على ظهر سلسلة الأطلس الصحراوي، حيث يزداد المتوسط السنوي للأمطار عن (٣٠٠مم) فإننا نجد غابات الصنوبر الحلبي، مع غابات فقيزة فوق جبال الجلفة والعين الصفراء.

د - ٣ - الإقليم الصحراوي: ويمتد الى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي، يحده شمالاً إقليم الاستبس، أما جنوباً فيتجاوز حدود الصحراء الجزائرية. وهو فقير بالحياة النباتية بحكم موقعه بعيداً عن الأمطار وأسبابها - اذ لا تزيد أمطاره السنوية على (٢٠٠ مم) - ويظهر في الصحراء إقليمان متباينان نباتياً، أحدهما هو

إقليم « تنزروف » أو « المليع » الخالي من النباتات تماماً حيث لا يظهر لها فيه أي أثر. والثاني إقليم « الفقر النباتي » الذي تظهر في أوديته شجيرات « الثـل » و « البـطوم » و « الـطلح » و « السنط » و«الصمغ» و«السدرة» التي تكتفي بالرطوبة القليلة المخزونة بين جزئيات التربة. أما فوق الهضاب الصخرية، فتظهر نباتات قصيرة جداً، مثل الضمران، والعجرم، والعلندة، والقرندل. كما تظهر فوق الكثبان الرملية نباتات الدرين، وهو الكلأ المفضل لدى الجمال.

وتتميز النباتات الصحراوية بالآتي :

آ ـ أنها سريعة الظهور والاختفاء، نتيجة للأمطار التي تصلها من بعيد، وهي أمطار مباغتة غير منتظمة، تدوم وقتاً قصيراً، فتؤثر بذلك في النباتات التي تظل بذورها مختفية تحت التربة عدة سنوات الى أن تنزل عليها أقل كمية من الأمطار، فتنمو بشكل غريب، وتدوم حياتها أياماً معدودة، ثم تنام عدة سنوات قبل أن تظهر مرة أخرى، إذا ما نزلت الأمطار، وعاودتها نوبة الرطوبة .

ب ـ ان أغصانها غالباً ما تكون مجردة من الأوراق، وجذوعها قصيرة ودقيقة، وكثيراً ما كانت مسلحة بالأشواك لتدرأ عن نفسها هجمات الحيوانات، وتقلل من عملية التبخر في هذا الإقليم الذي تشتد فيه الحرارة وعملية التبخر، ويقل فيه الأثر الفعلي للأمطار .

ج ـ أن عروقها كثيرة ومتشبعة، حيث أنها ممتدة في اتجاهات مختلفة الى أعماق بعيدة حتى تصل الى المياه. وأغنى المناطق الصحراوية نباتاً هي بطون الأودية، لأن طبقة اختزان المياه بها غير بعيدة عن سطح الأرض، وبذلك يسهل على النباتات المعتمدة على المياه الباطنية أن ترسل شبكة عروقها الى امتصاص حاجتها من الماء بسهولة .

«انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذِلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تعلمُونْ » .

« يَأَيهَا الـذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المتقِينْ » .

الفصل الثاني

١ ـ في فلسفة الثورة .

٢ ـ البيان الأول للثورة .

٣ ـ مكتب جبهة التحرير في القاهرة يصدر بيانه عن الثورة .

٤ ـ بدايات العمل الثوري .

٥ ـ انطلاقة الثورة في كتابة قائد إفرنسي .

٦ ـ عقبات على طريق الثورة

٧ ـ الثورة في وثائق ثوارها .

آ ـ الإعداد للثورة .

ب ـ الله أكبر ـ خالد ـ عقبة .

ج ـ لهيب الثورة في أريس .

د ـ فجر يوم الثورة المسلحة .

هـ ـ إندلاع الثورة في متوجة (متيجة) .

و ـ الولاية الأولى في معركة التحرير .

ز ـ الثورة في ولاية وهران .



غضب وبؤس وتصميم.. تلك هي ملامح المجاهدين

١ - في فلسفة الثورة

يقول « جول مونيرو » في وصفه الكلاسيكي لطبيعة الثورة وتطورها ما يلي : [تفقد جميع مظاهر النشاط الاجتماعي وفئاتها بصورة تدريجية استقلالها في الثورات. ففي الحروب الخارجية والداخلية على حد سواء، ينعدم الاستقلال في السياسات الخارجية والداخلية، وفي الشؤون الاقتصادية والدينية، وتصبح كلها مترابطة متشابكة. ويتجه كل شيء تدريجيا، نحو التوافق والاتصال، وهذا يشمل الأمور المتعلقة بالأفراد والجماعات على حد سواء، ويسبب لهم ولها الكثير من الجهد والمشقة. . . . وأخيرا فإن العالم بأسره يغدو منطقة حساسة واسعة من الاحتكاك، والاحتكاك المقابل. ويغدو التفاعل بين العالم الأكبر والإنسان، وبين الفرد والمجتمع، وبين الكيان الصغير والكيان الكبير الضخم، حركة سريعة متلاحقة، تجرف معها الإنسان دون أن يفهم شيئا، ولا يبقى هناك مجال لتحليل القيم والأهداف - الذي يمكن كل مجموعة بشرية وكل فرد، من أن يجد أو تجد « المكان اللائق لكل شيء »، «تتجزأ العقائد الدينية الى مجموعات من الواجبات المتنافرة، و « تصطرع القيم المنفصلة والمجزأة » متنافسة على الفرد وفي داخله. وفي وسع المؤرخ أن يجزىء

الأزمة العامة الى سلسلة من الأزمات الخاصة في أوقات وأماكن معينة، ولكن هذه الأزمات تظل تعدل بعضها البعض، وتقرر مصير بعضها البعض، وهذا الترابط، يكون مكانياً وزمانياً. فالنفس القديمة تندفع الى التغير، ولما يظهر بعد اي شيء ليملأ الفراغ الذي خلفته الأمور التي قذفتها هذه النفس وطرحتها جانباً. وتسيء الحاجات بتشكيل صورها، وتكتفي بما تستطيع تحقيقه من أين؟ وكيف؟ وتتوقف العقائد التي قام عليها المجتمع، عن السيطرة على الاستجابات العضوية، ولكنها تتعرض للهجمات على أساس المصالح. وتدافع عن نفسها، على هذا الأساس أيضاً، وتتهدم الحوافز الاجتماعية العظيمة في النفس، التي تمثلها هذه العقائد عن طريق النقد...

في مثل هذه الفترات، وعندما تصبح القواعد القديمة للمجتمع واهية ومائعة ومنهارة أمام حالة من الانتقال، وتفقد الانتقادات الموجهة الى كل الأوضاع القديمة، التي لم تعد مرضية، والى كل ما تقوم عليه من أسس، دون كابح أو زاجر.... وكتتمة طبيعية لانتشار الشكية، تنبعث هناك «باطنية» غير ناضجة.... هي: «وليدة التحالف بين الشكية والحنين الى الوطن» والى جانب العدمية (النهلستية) ـ وهي حالة من توافر الصلاحية النفسية التي تعني أن يكون الانسان حاضراً للفائدة لكل عمل ـ يظهر نوع من الحنين في أشكال متعددة، للإجماع العام الاجتماعي، وفي هذا التوق الى الوحدة، تعيش النفس، على أضخم صورة مقلدة لها، وهي صورة العصر الذهبي، واليوم المجيد.... ولا ريب في أن المفاهيم الجديدة للعالم، التي تحاول أن تحتل مكان النظام الاجتماعي القديم، تحمل طابع الجدة.

والثورة ـ وهي الأزمة الطويلة التي تحيل التنافر إلى وحدة ـ لا تستطيع الوقوع في « وعاء مقفل » في جزء واحد من العالم، حتى ولا في قارة بأسرها، فارتباط الاضطرابات ارتباط عالمي. . . . والثورة ـ عملية تاريخية، لا تقود إلى أبواب الفردوس، بل إلى أبواب عالم شبيه بالعالم الذي نعرفه، باستثناء أن كل ما فيه قد تبدل. حتى « النفس » أيضاً تغيرت. فأية فئات يمكن لها أن تقتسم المنافع والخدمات وتتوزعها، وممّ تتألف هذه الفئات؟ ولمنفعة من سيجري هذا التوزيع؟ وأية علاقات بشرية يمكن لها ان تتبدل فعلاً؟ وما هي الأهمية الحضارية لهذا التبدل؟ وما هو نوع النظام الجديد الذي سيوجد والذي سيقبل فيه الناس أوضاعهم؟ وكيف يمكن لهذا النظام أن يضع الخطة لإبراز الطبقة المختارة؟ هذه هي الاسئلة التي تبرز ما يتعرض للخطر في المعركة.

وليس من الصعب تسمية كل عصر « بالعصر الثوري » إذا كان الاصطدام المتزايد في المشاكل يقترب من نقطة الإشباع. فالتباين والخلاف يصلان الى أقصى امتدادهما. . . وترفض الغالبية العظمى تقبل المجتمع. ويأخذ عدد الرجال الذين فقدوا الاحساس بالانتماء الى النظام الاجتماعي أو النظام العالمي يزداد. . . ويصبح المجتمع الى حد كبير، واخيراً الى حد نهائي، ترتيباً استبدادياً، أو اذا شئنا تعبيراً أصدق، قلنا إنه يصبح سلسلة من الترتيبات التي لم تعد تستحق اسم « المجتمع ». . . . وتأخذ الظروف دورها في تكييف سلوك الإنسان أو تشويهه، ويتعاظم دور هذه الظروف، بينما ينقص دور المسؤولية. وفي مثل هذه الأوقات يكون الرجل العظيم هو ذلك الذي يملك، بالإضافة الى مواهبه الأخرى، موهبة تمييز « اللحظة

المؤاتية » . . . . وللرجال العظام في مثل هذه الظروف بالإضافة الى فضائلهم الأخرى فضيلة المعرفة التامة وموهبة المخر في عباب المجتمع . . . . وعندما لا يشعر الفرد بأنه جزء مكمل لنظام اجتماعي ، يحاول البحث عن حلول مؤقتة ، كالحصول على ملجأ في فتنة ، أو في أي مكان أمين آخر . . . . ولكن هذا الوضع ، يسري على روح المغامرة بقدر ما يسري على روح الحذر . وهناك فرص جديدة ، وعن طريق التصميم والشجاعة والاحتمال والحظ ، يمكن الوصول في هذا العصر إلى نتائج أكثر من تلك التي كان بالمستطاع الوصول اليها في العصر السابق][1]

* * *

المهم في الأمر ، هو أن إرادة التغيير الشامل باتت متوافرة لدى معظم مسلمي الجزائر ، وتوافرت « قيادة تاريخية » عرفت أهمية « اللحظة التاريخية » . وأفاق العالم صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٤ ، على نداء يحمل الإعلان عن بداية الثورة . وليس في وسع أي ثوري ـ أو أية فئة ثورية ، أن تحكم مسبقاً على مدى ما يحققه النداء الأول من استجابة في نفوس الجماهير . غير أن « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » والتي تحولت في تلك الليلة الى « جبهة التحرير الوطني الجزائري » كانت على ثقة مطلقة من أن النداء الذي وزعته مع الطلقات الأولى التي أعلنت قيام الثورة ، سيلقى استجابة عامة تساعد الثورة على تطوير أعمالها وتصعيد صراعها . وهذا ما تحقق فعلاً . وقد تضمن البيان التاريخي ما يلي :

---

(١) علم الاجتماع في الشيوعية (جول مونيرو) ص ٣٠٢ ـ ٣٠٨ عن الجزائر الثائرة ـ جوان غيلسبي ـ ترجمة خيري حماد ـ ص ١١٧ ـ ١١٩ .

٢ ـ البيان الأول للثورة :

(بيان فاتح نوفمبر 1954)[١]

أيها الشعب الجزائري
أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا، نعني الشعب بصورة عامة، والمناضلين بصفة خاصة، نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الاعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا الى العمل. أن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الأفريقي، ورغبتنا أيضاً هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملاؤها الاداريون، وبعض محترفي السياسة الانتهازية فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية، بعد مراحل من الكفاح، قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. **فإذا كان هدف أي** حركة ثورية، في الواقع، **هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية** تحريرية، **فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري، في أوضاعه الداخلية متحد** حول قضية الاستقلال والعمل. **أما الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج** الدولي مناسب لتسوية بعض **المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي**

---

(١) المرجع: ملفات وثائقية ٢٤. نشر وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ـ أوت 1976 ص ٧ و٨.

تجد سندها الدبلوماسي، وخاصة من طرف، إخواننا العرب والمسلمين.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال أفريقيا. ومما يلاحظ في هذا الميدان، أننا منذ مدة طويلة، أول الداعين إلى الوحدة في العمل. إن هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقق أبداً بين الأقطار الثلاثة. وقد اندفع كل واحد منها اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب، فاننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث. وهكذا فان حركتنا الوطنية قد وجدت، نفسها محطمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين. توجيهها سيء، ومحرومة من سند الرأي العام العالمي الضروري، وقد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحاً ظناً منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في صراعه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح من المحال علاجها، رأت مجموعة من الشبان المسؤولين المناضلين الواعين، التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص، والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الثورية الحقيقية، إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين. وبهذا الصدد، فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة. إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية

الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمي، أن يمنح أدنى حرية .

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم « جبهة التحرير الوطني » وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية الوطنية الفرصة أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أي اعتبار آخر. ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا السياسي :

الهدف : هو الاستقلال الوطني بواسطة :

١ ـ إقامة الدولة الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية، ذات السيادة، ضمن إطار المبادىء الاسلامية.

٢ ـ احترام جميع الحريات الأساسية بدون تمييز عرقي أو ديني .

الأهداف الداخلية :

١ ـ التطهير السياسي ـ بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي، والقضاء على جميع مخلفات الفساد، وروح الاصلاح التي كانت عاملاً هاماً في تخلفنا الحالي .

٢ ـ تجميع وتنظيم جميع الطبقات السليمة لدى الشعب الجزائري، لتصفية النظام الاستعماري .

الأهداف الخارجية

١ ـ تدويل القضية الجزائرية .

٢ ـ تحقيق وحدة شمال أفريقيا في داخل إطارها العربي والاسلامي .

٣ ـ في إطار ميثاق الأمم المتحدة : نؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية . .

وسائل الكفاح

إنسجاماً مع المبادىء الثورية واعتباراً للأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا . ولكي تحقق (جبهة التحرير الوطني) هدفها، فإنه يجب عليها إيجاز مهمتين أساسيتين في وقت واحد هما : العمل الداخلي، سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض. والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، وذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين ؛ وهذه مهمة شاقة ثقيلة العبء وتتطلب كل القوى، وتعبئة كل الموارد الوطنية. وحقيقة أن الكفاح سيكون طويلاً ولكن النصر محققاً. وفي الأخير، وتحاشياً لتأويلات الخاطئة، وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحديداً للخسائر البشرية وإراقة الدماء، فقد قدمنا للسلطات الافرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة لتعترف نهائياً للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها :

١ ـ الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً إفرنسية ـ التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.

٢ ـ فتح باب المفاوضات مع الممثلين المفاوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.

٣ ـ خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ورفع كل الاجراءات الخاصة، وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

وفي المقابل

١ ـ فإن المصالح الإفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية، والمتحصل عليها بنزاهة، ستحترم، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.

٢ ـ جميع الإفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر، يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية، ويعتبرون بذلك كأجانب أمام القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية، وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات.

٣ ـ تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر، وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائري! إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة، وواجبك هو أن تنضم إليها لإنقاذ بلادنا، والعمل على أن نسترجع لها حريتها. إن

جبهة التحرير الوطني هي جبهتك، وانتصارها هو انتصارك أما نحن، العازمين على مواصلة الكفاح، الواثقين من مشاعرك المناهضة للامبرياليين، فإننا نقدم للوطن أغلى - وأنفس - ما نملك.

فاتح نوفمبر 1954.
الأمانة العامة.

* * *

ومع بيان «جبهة التحرير الوطني» أصدرت قيادة «جيش التحرير الوطني» التي ولدت ليلة الثورة من تنظيم «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بياناً تم توزيعه مع توزيع بيان «جبهة التحرير الوطني» ولم يكن توزيع البيانين في وقت واحد دليل وجود انقسام، قدر ما كان تأكيداً على ولادة التنظيمين السياسي والعسكري للثورة، وانطلاق التنظيمين من العمل الصامت الى المجابهة المسلحة. وتضمن بيان «جيش التحرير الوطني» ما يلي:

بيان من جيش التحرير الوطني
في الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - 1954

أيها الشعب الجزائري!

فكر بالموقف الشائن للاستعمار، حيث العدالة والديموقراطية والمساواة ليست أكثر من واجهات خداعية، يستخدمها المستعمرون. ومع كل هذه الشرور، يجب عدم نسيان قصور الأحزاب عن الدفاع لضمان مصلحتك. فهيا بنا لنمسك يداً بيد، ومعنا إخوتنا في المشرق والمغرب، والذين يموتون لتعيش أوطانهم. إننا ندعوك لاستعادة



شاب هجر مدرسته والتحق بقواعد الثوار

حريتك ولو كان دمك ثمناً لها. نظم عملك إلى جانب قوات التحرير التي تطلب مساعدتك. وعليك واجب حمايتها وتقديم العون لها.

إن عدم المبالاة والتخلي عن الصراع أصبح جريمة. أما الخيانة فهي في مقاومة الثورة. إن الله مع المجاهدين المدافعين عن قضيتهم العادلة، وليست هناك قوة يمكن لها إيقافهم منذ اليوم. فإما الموت بفخار، وإما لتحرير الوطن.

عاش جيش التحرير. وعاشت الجزائر مستقلة.

* * *

عندما صدرت هذه البيانات، كان لهيب الثورة قد انطلق منذ ساعات قليلة في « آريس » و « خنشلة » و « فم الطوب ». وفي عدد كبير من المواقع ضمن إطار « العمليات الصغرى»، غير أن تنوع هذه العمليات ووفرة عددها كان أمراً مثيراً لقلق السلطات الاستعمارية. لقد كان إعلان الثورة مجرد تظاهرة للقوة، غير أنها تظاهرة صممت بطريقة رائعة. وانسجاماً مع برنامج الثورة في ربط « الصراع السياسي » بالصراع المسلح، قام مكتب جبهة التحرير الوطني في القاهرة- والذي كان يرأسه احمد بن بللا - بإصدار بيان يعلن فيه إنطلاقة الثورة وذلك يوم ١٥ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤ (أي بعد مضي ١٥ يوماً على إنطلاقة الثورة) وتضمن البيان ما يلي :

٣ ـ مكتب جبهة التحرير في القاهرة، يصدر بيانه عن الثورة

« . . . لقد بوغت المستعمرون في ليلة الفاتح من نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ الحالي، بمجموعة من الهجمات، بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً، شملت جميع أنحاء الجزائر. وهذه الحوادث التي تجلى تنظيمها. لجميع المراقبين، كانت تشمل بوجه خاص هجمات على مراكز الجيش، والشرطة (البوليس) ومستودعات الأسلحة، ونسف أهداف استراتيجية واقتصادية حيوية، ولم تستهدف الأشخاص في أي مكان. أما القتلى الذين ورد ذكرهم، فقد قتلوا في اصطدامات بين البوليس والوطنيين الجزائريين.

ولقد اتخذت حركة الوطنيين الجزائريين أشكالاً تختلف حسب المناطق. ففي شرق الجزائر، أي في منطقة جبال الاوراس، اعتصم الوطنيون بالجبال، بعد أن هاجموا المراكز العسكرية في « باتنة » و« خنشلة » وبعدما احتلوا مركز « آريس ».وعند انسحابهم، نسفوا الجسور وسدوا المنافذ والطرقات .

وهؤلاء الوطنيون الذين تحصنوا بجبال الاوراس، هم الذين احتشدت لمقاومتهم معظم القوات العسكرية الإفرنسية في الجزائر،

تلك القوات التي جاءت نجدات هامة من فرنسا وألمانيا لتعزيزها.
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن استخدام القوات التي كانت تعسكر في ألمانيا، لم يتم الا بعد موافقة هيئة أركان حرب منظمة شمال حلف الأطلسي. وكانت الأنباء قد ذكرت، في اوائل شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ أن مباحثات سرية تجري بين الجنرال «غليوم» الافرنسي، والجنرال «غرونتر» قائد قوات حلف الأطلسي. وبعد المباحثات بأيام، سحبت فرنسا فرقتين كاملتين مجهزتين بمعدات الحلف العسكرية. ـ وتقدر الفرق الافرنسية التي حشدت في جبال الأوراس والتي تعززها المدرعات والطائرات بفيلقين ـ ويبلغ عدد المقاومين الجزائريين في تلك المنطقة عدة آلاف، مسلحين بالبنادق والرشاشات، وقد التحق بهم حوالي مائتي رجل، من جيش التحرير التونسي، بعد اجتياز الحدود.

ويستطرد البيان قائلاً: ويقوم الوطنيون في بقية أنحاء إقليم قسنطينة بعمليات يومية، تهدف إلى إرهاق القوات الافرنسية، وذلك بمهاجمة المراكز العسكرية والمناجم ونسف الجسور وقطع الخطوط الهاتفية والسكك الحديدية، وتقع هذه الحوادث قرب «قالمة» و«سوق أهراس» و«سكيكدة». وفي جنوب المنطقة، تسلحت بعض القبائل، واتجهت الى الشمال لدعم الوطنيين في جبال الأوراس. وفي إقليم الجزائر، حيث وقعت هجمات في مدينة الجزائر، وفي أهم المدن. وقد تركز النشاط في الجهات الجبلية من منطقة القبائل بأسرها، وضواحي مدينة «بليدة». ويقوم الوطنيون المعتصمون بالجبال، بهجمات عديدة على القوات الافرنسية، وأصبح الوطنيون وهم يسيطرون على منطقة القبائل كلها، بحيث لم يعد

باستطاعة الإفرنسيين المرور إلا في قوافل السيارات المصفحة، وقد قطعت جميع المواصلات السلكية. أما في غرب الجزائر - أي في اقليم وهران - ونظراً لأن المنطقة لا تسمح الا باستعمال أساليب المطاردة والارهاق، فقد وقعت حوادث نسف وتخريب في كل الأنحاء. وحدثت إلى جانب ذلك اشتباكات عديدة استخدمت فيها الرشاشات في « مستغانم » بينما قطعت الخطوط الهاتفية المدفونة تحت الأرض والتي تصل بين الجزائر والمغرب - مراكش - وذلك في نقطة في الطريق بين « مغنية » و « صبرة ». كما قطعت الخطوط الحديدية في نقاط مختلفة. وأصبح الإفرنسيون، يعتبرون الجنوب، على حدود الصحراء، منطقة غير آمنة »[1]

(١) الثورة الجزائرية - أحمد الخطيب - ص ١٧٠ - ١٧١.

٤ ـ بدايات العمل الثوري

بهذه الحركات الخفيفة المنظمة، تمكن جيش التحرير من بث الذعر والفوضى في صفوف العدو الذي فقد صوابه. وقد تمكنت قوات جيش التحرير من حصار « **فم الطوب** » و « **آريس** » وقطع جميع المواصلات الهاتفية والبرقية بينهما وبين بقية المدن، ودام الحصار ثلاثة أيام كاملة، كانت تصل خلالها النجدات والمؤن لحاميتي المركزين بواسطة الطائرات العمودية. **وسيطر جيش التحرير على منطقة الأوراس التي تبلغ مساحتها (١٢) ألف كيلو متر مربع** سيطرة مطلقة وقضى على جميع المراكز الاستعمارية في هذه المنطقة. أما في جبال « جرجرة » ـ القبائل، فقد ظهرت فيها القوات الوطنية فجأة، واستولت عليها، وأحاطت بـ«تيزي أوزو» أكبر مدينة فيها.

وأسرعت الادارة الافرنسية في الجزائر بطلب النجدات من فرنسا. وفي ٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ (أي في اليوم الثالث لاندلاع الثورة) نزلت في ميناء عنابة ثلاث كتائب من المظليين تم استقدامهم من فرنسا بأمر من رئاسة الحكومة. **وكانت القوات الافرنسية بالجزائر يوم انفجار الثورة، تضم (٤٩,٧٠٠) مقاتل**. وعلى الرغم من ضخامة هذه القوات، فإنها ظلت عاجزة حتى عن حماية نفسها، ولم يتسن لها

التحرك والتجمع إلا بعد وصول نجدات كبيرة من فرنسا. وقد صرح سكرتير الدولة الافرنسية للشؤون الحربية آنذاك « جاك شوفالييه » بما يلي : « **إن منطقة الاوراس هي في حالة ثورة حقيقية. وعدد الثوار فيها بين أربعمائة وأربعمائة وخمسون رجلاً، وهم يستخدمون الأسلحة الآلية - الأوتوماتيكية، والأجهزة اللاسلكية للارسال والالتقاط، وهم يجوبون أعالي البلاد** » .

وكان لا بد للقوات الاستعمارية، أن تقوم بعمل يرد لها بعض « الكبرياء المجروح » و « الهيبة المفقودة ». ولو بواسطة الدعاية المزورة - الملفقة - التي لا بد منها لحفظ سمعة الجيش الإفرنسي . وقد تجمعت القوات الإفرنسية في « باتنة ». وانطلق منها فيلقان يوم ٥ تشرين الثاني - نوفمبر - الى الأوراس، بزعم القيام بعملية تطهير، ولم تكن هذه العمليات في الواقع سوى استعراض لعضلات الاستعمار الإفرنسي، ومناورات قمع واضطهاد. وبعدها بيومين، انطلقت ثلاثة فيالق عسكرية في عملية إرهابية داخل البلاد - في اتجاه القبائل الكبرى وجبل « أشمول ». وقد عادت هاتان الحملتان دون أن تصادفا أية قوة لجيش التحرير، ولكنها اعتقلت بضع مئات من - المشبوهين - .

لقد أدت عمليات فدائيي المقاومة السرية في شن الهجمات الصاعقة، سواء بطريقة الزي المزيف أو الانقاض المباغت، الى تحطيم أعصاب الجنود الافرنسيين، وعلى الخصوص الدوريات المتجولة، وحراس الثكنات والمستودعات الحربية، الذين يفقدون السيطرة على أعصابهم نهائيا مع اختفاء ضوء النهار. فحين يهجم الليل بسواده الداكن، يخضعون لمشاعر الفزع، ويتصورون كل شبح في الطريق

فدائياً. ويعتقدون كل لمعة هي مدية موجهة لأعناقهم، وكل صوت هو صوت قعقعة سلاح. ويظن الواحد منهم أن كل دورية تبديل إنما هي جماعة من الفدائيين، فلا يلبث أن يطلق النار عليها، وعلى كا شبح أو شجرة أو حركة.

ومن القصص المثيرة والمعروفة، ما حدث في مدينة « معسكر » خلال الأيام الأولى للثورة، حيث كان السكون يخيم على المدينة، لا يعكر صفوه سوى سير الدوريات المسلحة. وكان عقربا الساعة يلتقيان عند شارة منتصف الليل، عندما صدرت عن الجهة الغربية للمدينة - قرب محطة الخط الحديدي - نيران رشاشة بغزارة عالية. وعند الصباح تبين أن جنود اللفيف الأجنبي - ليجيون ايترانجيه - الذين يحرسون مستودعات النفط قرب محطة الخط الحديدي، سمعوا صوت حركة بين الأعشاب، ففتحوا نيرانهم الرشاشة في اتجاه مصدر الصوت. ولم تكن الضحية أكثر من حمار شارد!

كان إعدام الخونة، والمتعاونين مع العدو، هو الهدف الأول للمقاومة السرية وجيش التحرير على السواء. فالخائن في العرف الوطني هو عين الاستعمار، وهو الجرثومة الخطرة التي يبتلي بها الوطن. وكما أن الجسم العليل لا يمكن أن يستعيد نشاطه، أو يبرأ من مرضه إلا إذا قضى قضاء تاماً على جرثومة العلة.. فكذلك الشعب العربي وشعوب العالم، لا تستطيع أن تحرر أو أن تنطلق على درب الحرية والسيادة، إلا إذا تم لها استئصال عناصر الفساد، وقتل جراثيم العلة والبلاء فيها. وقد نجحت المقاومة السرية في القضاء على الخونة المارقين، أذناب الاستعمار، وعبيد ماله. وأراحت الشعب العربي في الجزائر من لسعاتهم السامة. وكان آخر من سقط منهم مضرجاً بدم

الخيانة والفساد « عدة شنتوف » و « علي شكال » الذي نفذ فيه حكم الإعدام في قلب فرنسا. وهذان الجاسوسان ينتميان الى المجلس الجزائري المزيف. « وابن التكوك » شيخ الطريقة السنوسية في « مستغانم ». وتتم عملية الاعدام، بعد محاكمة المتهم حضورياً أو غيابياً، وتبحث في هذه المحاكمة الأدلة والبراهين القاطعة التي تثبت إدانة المتهم، وبعد ذلك، يعلن رئيس المحكمة الحكم النهائي. وينفذ هذا الحكم فوراً.

وبانتهاء حياة الخونة، أصبح جلاء المستعمر عن الوطن الجزائري حتمياً، فبفقدانه عيونه-جواسيسه- أصبح بدون مساعد أو معين، فكيفما اتجه،، يجد حراباً مسنونة تدميه. وسيوفاً مسلولة تقض مضاجعه. ولقد أظهرت عمليات إبادة الخونة أهميتها بسرعة مذهلة، فقد ظهرت الإدارة الإفرنسية في الجزائر، وقيادتها العسكرية، أنها باتت غارقة في الظلام، ولم يعد باستطاعتها تقويم القوات الحقيقية للثورة، أو معرفة أي شيء عن نوايا الثوار ومخططاتهم، فراحت تنعت رجال جيش التحرير بأنهم قطاع طرق (فلاقة) وذلك لتغطية ما ترتكبه القوات الافرنسية من جرائم التقتيل والابادة والتدمير. وقدرت عدد رجال (الفلاقة) ببضع مئات من الرجال، وأحياناً تزيد عددهم الى بضعة ألوف - ثم إلى (١٥ ألفاً).

وبقي جيش التحرير محتفظاً بسرية عدده وعدته. وكان يعلن في كل المناسبات بأن: عدده هو مجموعة الشعب، وأن مخازن الجيش الافرنسي هي مصدر سلاحه. وكان جيش التحرير عندما بدأ عملياته. قد قسم البلاد الى ست مناطق عسكرية، وزع قواته عليها توزيعاً محكماً، وجعل على رأس كل منطقة قيادة مهمتها إدارة الحرب

وتنظيم أعمال المقاومة السرية . وحتى تتوافر لعمليات جيش التحرير المرونة وخفة الحركة والقدرة على المباغتة ، فقد قسمت القوات الى مجموعات صغيرة ، تضم كل واحدة منها حوالي العشرين جندياً؛ مسلحين بالبنادق الرشاشة والقنابل اليدوية ، ولدى كل مجموعة جهاز لاسلكي للاتصال بالقيادة وبالمجموعات الأخرى . ولقد أعيى توزيع القوات الجزائرية ، على هذا النمط ، الجيوش الافرنسية المجتمعة التي كانت تنطلق بين الفينة والفينة ، في عملياتها العسكرية ضد الثوار الجزائريين . ولم تعثر هذه الجيوش خلال عملياتها الواسعة على أي أثر لأفراد جيش التحرير ، الذين كانوا يراقبون تحركات العدو عن كثب . وبحذر تام . وحين يأتي الظلام ، تشرع الدوريات الجزائرية في العمل ، بينما تختفي القوات الافرنسية الضخمة داخل مراكزها الحصينة .

وقد وصف مندوب وكالة الصحافة الإفرنسية الحالة في الأوراس خلال الشهر الأول للثورة بقوله : « تحافظ الجماعات المسلحة على وجودها مختفية ، ففي النهار ، لا يظهر أحد منهم . وأثناء الليل ، تشعل النيران في الجبال ، نيران توقد وتخبو كأنها إشارات ، وقد تصادف في وقت متأخر من الليل جرارات بأوضاع غير عادية تأكلها النيران وهي مصطفة على جوانب الطريق » . ولكن ومع اقتراب الشهر الأول للثورة من نهايته ، بدأت القوات الجزائرية بالتحرك نهاراً ، وأخذت تنشر الرعب في صفوف العدو . وكانت الى جانب اعمال قطع أسلاك الهاتف والبرق ، تقوم بهجمات خاطفة على مراكز الجيوش الافرنسية ، وقوافل التموين ، وأصبحت خطط جيش التحرير تعتمد على مبدئين أساسيين من مبادىء الحرب : الضرب

بشدة وبصورة مباغتة ، ثم الانسحاب بسرعة . وقد أذهلت هذه الخطط القادة الإفرنسيين ، فوضعوا مخططاتهم المضادة التي تعتمد على الإبـادة التامة والتدمير الشامل لقواعد الثورة . وضمن هذا الإطار قامت طائرات سلاح الجو الإفـرنسي مساء السبت (٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٤) بـإلقـاء خمسين ألف منشور ـ بيان ـ على منطقة الأوراس . وتضمن المنشور المذكور ما يلي :

نداء الى السكان المسلمين !

«إن بعض المحرضين المدفوعين من جهة أجنبية ، أثاروا حوادث دامية في ـ بلادنا ـ وهم يتمركزون بصورة خاصة في منطقتكم ، ويعيشون على خيراتكم . إنهم يلزمونكم بمساعدتهم ، ويسعون الى اقتياد رجالكم في مغامرات إجرامية .

أيها المسلمون !

انكم لن تتبعوهم ، وستتجمعون عاجلاً قبل الساعة السادسة من مساء يوم الأحد ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ في مناطق الأمان التي سترشدكم اليها القوات الافرنسية الضاربة في منطقتكم مع موظفي الادارة والدواوين .

أيها الرجال الذين خرجتم على القانون بغير تفكير ، إذا كنتم لم تقترفوا جرماً يعاقبكم ، التحقوا حالاً بمناطق الأمان مع أسلحتكم فلن يصيبكم أي أذى . وستنزل المصيبة الهائلة على رؤوس العصاة . ويسود السلام الإفرنسي من جديد» .

لم يستجب أحد من أبناء الأوراس لهذا النداء ، ولم ينزل أحد الى « باتنة » أو سواها من مراكز الأمان التي حددتها القيادة الافرنسية ،

فما كان من هذه القيادة الا أن مددت مهلة الالتحاق بمراكز الأمان لمدة خمسة أيام (حتى ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ) وأطلقت قواتها لإرغام المواطنين الجزائريين على مغادرة قراهم ومراكزهم . ونجحت في النهاية بحمل (٢٨٠) عائلة من قرية « أشمول » التي يزيد عدد العائلات فيها على الألف عائلة ، بالنزول الى « مراكز الأمان » . وقد لوحظ خلو الرجال والاشداء والشبان ، من بين الذين حملتهم القوات الافرنسية الى « المعتقلات الاجبارية التي حملت اسم معسكرات الأمان » وجدير بالذكر ان عدد سكان الأوراس كان يتراوح بين (١٢٠) و (١٥٠) الف مواطن .

بعد انتهاء أجل الانذار، خرجت خمسة فيالق فرنسية في اتجاه القرى التي رفضت الانذار الافرنسي ، وقامت بعمليات اعتقال وإبادة واسعة النطاق، اشترك فيها سلاح الجو الافرنسي وقذف فيها قرى الأوراس بقنابل النابالم الحارقة . ولم تؤثر هذه العمليات الوحشية في نفسية الشعب . فظل صامداً يدعم قوات جيش التحرير في المنطقة ، إلى أن ظهرت المجموعات الجزائرية فجأة في جبال «جرجرة» ، وكان لظهور هذه المجموعات في هذه المنطقة من ولاية « عمالة » الجزائر، وقع الصاعقة على رؤوس الاستعماريين، إذ اعتبروه بداية التطوير لعمليات جيش التحرير المنظمة . وأخذت تحركات قوات الثورة تتوالى في منطقة الاوراس مع انتهاء الشهر الأول لبداية الثورة. وحدثت اشتباكات عنيفة مع القوات الافرنسية أدت الى مصرع عدد كبير من الافرنسيين . وكانت خسائر الثوار محدودة جداً، نظراً لافادة هؤلاء من عامل المباغتة في توجيه الضربات . وحاولت الادارة الافرنسية وقياداتها العسكرية قلب الحقائق، واتباع الأساليب الاعلامية الخادعة،

فأخذت تزعم أنها قتلت عشرات ومئات الثوار، بينما كانت البلاغات الافرنسية تكاد تخلو من ذكر القتلى الافرنسيين.

غير أن هذا الأسلوب من الكذب والخداع، لا يلبث أن يكشف ذاته بسرعة، ليفضح الأساليب التضليلية. وقد ظهر ذلك واضحاً في عملية حدثت في بداية شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤. ففي هذا التاريخ كانت قوة فرنسية تضم (١٥٠) جندياً تقوم بعملية (التطهير) في الأوراس. وقد أوغلت هذه القوة في تقدمها حتى وصلت الى منطقة مكشوفة، وكانت إحدى المجموعات الجزائرية العاملة في هذه المنطقة تتابع تحركات القوة الافرنسية عن كثب، وتحكم الخناق عليها، حتى إذا ما وصلت الى المنطقة المكشوفة، انقضت عليها بالنيران والالتحام، وأبادتها إبادة تامة. وفي الغد، جاء تصريح القيادة الافرنسية بالصيغة التالية: « **بينما كانت إحدى فرقنا تقوم بعملية تطهير في الأوراس، هاجمتها عصابة مسلحة من ـ الخارجين على القانون ـ وتمكنت قواتنا من قتل (٤٩) ثائراً، أما خسائرنا فلم تتجاوز قتل جندي واحد وإصابة آخر بجراح** ».

قامت قوات فرنسية كبيرة بعمليات حصار وتفتيش في بلاد القبائل، يوم ١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤، وكان هدفها الأول هو إرهاب المواطنين، لا سيما بعد ظهور قوات الثورة الجزائرية في هذه المنطقة. وقد تلتها في ٣٠ كانون الأول ـ ديسمبر ـ حملة أخرى تضم (٤) آلاف جندي للبحث عن الجماعات المسلحة، ولم تصادف هاتان الحملتان أحداً من رجال جيش التحرير، الذين كانوا كعادتهم يراقبون تحركات العدو، وينتظرون انسلاخ قوات صغيرة عن القوات الكبيرة ليهاجموها. غير أن الافرنسيين كانوا شديدي الحذر، فلم

يجرأوا على تقسيم قواتهم. بل أبقوها مجتمعة تعمل ككتلة واحدة، وهذا ما سبب لهم الفشل، لأن تحرك مثل هذه القوات التي ترافقها الدبابات والمدرعات الخفيفة، وتحرسها الطائرات من الجو، لا بد وأن تكون بطيئة عبر الدروب المتفرقة في المنطقة والخفيفة الحركة.

وكان الافرنسيون يعتقدون أنهم بحملاتهم الضخمة هذه يستطيعون إيقاف الثورة وخنقها وهي في مهدها. غير أن الثورة نجحت في نشر قواتها وزيادة نشاطها.. فبعد أن كانت عمليات الجيش محصورة في الأوراس إذا بقوات الثورة تنتشر في بقية ولاية (عمالة) قسنطينة. ثم تمتد إلى بلاد القبائل (جبال جرجرة)، ومن هناك بدأ انتشار الثورة داخل ولاية (عمالة) الجزائر ذاتها.

استمرت القيادة الافرنسية في محاولاتها بالرغم مما أصابها من الفشل، فوجهت يوم ١٩ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٥ قوة مكونة من خمسة آلاف جندي مدعمة بالمدرعات والطائرات للبحث عن مجموعات جند جيش التحرير في الأوراس. ثم أتبعتها بقوة ثانية تضم أربعة آلاف جندي لتطوير عمليات البحث في شمال الأوراس. وعادت الحملتان بعد أيام دون تحقيق نتيجة تذكر. وخلال ذلك كان جيش التحرير قد وسع دائرة نشاطه حتى أمكن له السيطرة على منطقة الجنوب كلها. ووقعت مجموعة من الاشتباكات الضارية في « كولون بيشار » و« عين الصفراء » و « بوسعادة » واختفى رجال جيش التحرير بعدها ليعاودوا ظهورهم في منطقة « وهران » . وأصيبت الادارة الاستعمارية وقيادتها العسكرية بحمى الغضب لهذا التطور، إذ كانت تعتقد حتى تلك المرحلة بأن ولاية « عمالة » وهران مسالمة، لأن طبيعة وهران وتكونها الديمغرافي لا يساعدان جيش التحرير على

التحرك والعمل في منطقتها.

وعلى أثر امتداد نفوذ جيش التحرير، وتعاظم نشاطه في كل أنحاء القطر الجزائري، عملت فرنسا على إقالة الحاكم العام « ليونارد » وخلفه في منصبه « جاك سوستيل». وفي أول نيسان ـ ابريل ـ ١٩٥٥ أقرت الجمعية الافرنسية لمدة سنة العمل « بقانون الطوارىء » وهو قانون يمنح القوات الافرنسية حرية العمل العسكري بالجزائر، وتطورت بنتيجة ذلك أعمال القتل والسلب واقتحام مساكن المسلمين الجزائريين عنوة في الليل والنهار بحجة البحث عن الثائرين، مع فرض رقابة صارمة على الصحف والاعلانات ومحطات الاذاعة والافلام السينمائية والمسرحيات وكل أنواع النشاطات الاجتماعية الأخرى. وقد أدى ذلك الى انتشار الفوضى، وازدياد أعمال الاضطهاد، وانتشار الرعب. فما كان من القوات الجزائرية الثائرة في منطقة الأوراس. إلا أن زادت من هجماتها على القوات الافرنسية، وعملت على تصعيد الصراع، بزيادة الكمائن والهجمات على مخازن حلفاء الافرنسيين الاستعماريين. ووقعت في هذا الشهر (نيسان ـ ابريل) حوادث تدميرية هامة في مدينة الجزائر، حيث دمر فدائيو المقاومة السرية معامل «باسطوس» للسجائر، ومصنعاً للفلين.

جابهت الادارة الاستعمارية في الجزائر، والقوات الافرنسية المسلحة، ثورة شعب الجزائر بأساليبها التقليدية التي طالما مارستها منذ أن وطئت قواتها أرض الجزائر. ولقد صرح رئيس بلدية الجزائر، وكاتب الدولة السابق للقوات المسلحة « جاك شوفالييه» بقوله: « إننا لن نحارب بوسائل عادلة ضد ـ الخارجين على القانون ـ إننا نحاربهم وفقاً لقانون الثأر، إنه الدفاع الشرعي من أجل مصلحة البلاد».

وهكذا، وانتقاماً من هجمات الثوار الجريئة في شهر أيار ـ مايو ـ وبداية شهر حزيران ـ يونيو ـ ١٩٥٥، قام سلاحا الطيران والبحرية وفرق المغاوير والمظليين بعمل ثأري، فدمروا القرى العربية المحيطة بمدينة « سكيكدة » الساحلية ومحوها وسكانها من الوجود، وأصبحت هذه القرى أثراً بعد عين. وفي أواخر شهر تموز ـ يوليو ـ وافقت الجمعية الوطنية الافرنسية على تمديد العمل « بقانون الطوارىء » بأغلبية (٣٨٢) صوتاً ضد (٢٣٣) صوتاً لمدة ستة أشهر. وقد أعلن النائب الافرنسي « لويس فالون » الهدف من فرض قانون الطوارىء بقوله: « **إنني أؤكد بأن طلب الحكومة القاضي بتجديد ـ حالة الطوارىء ـ هو اعتراف ظاهر بفشل سياستها المبنية على القمع والاضطهاد، وليس على الكفاح ضد الأسباب الحقيقية للثورة** ». **وانطلاقاً من هذه الحقيقة وقعت مذبحة « سكيكدة » التي يمكن تلخيص مأساتها بالتالي:**

قامت قوات الثورة بمهاجمة « سكيكدة » في العشرين من شهر آب ـ أغسطس ـ وحاصرتها حصاراً محكماً، واشتبكت في معارك ضارية مع حامية المطار الحربي فيها، وقتل خلال هذه المعارك (٦٠) جندياً فرنسياً. وعلى أثر هذا الهجوم الصاعق، قامت القوات الاستعمارية بعدوان انتقامي من سكان «الحي العربي» في المدينة والقرى المحيطة بها. وبما أن الرجال كانوا قد غادروا منازلهم والتحقوا بجيش التحرير، فقد وقعت أعباء المذبحة الرهيبة على النساء والأطفال والشيوخ العجز. واعترفت السلطات الإفرنسية بمقتل النساء والأطفال، وجاء في هذا الاعتراف: « **بأن قتل النساء والأطفال كان نتيجة اشتراكهم في المعارك الحربية** ». ولكن المعارك حدثت يوم



تلاحم قوى الشعب في المعركة - الفلاح والجندي يتبادلان العون والدعم

هجوم الوطنيين على سكيكدة ـ أي السبت ٢٠ آب ـ أغسطس ـ في حين وقعت مذبحة النساء والأطفال يوم الثلاثاء ٢٣ آب ـ أغسطس ـ وعلى هذا فإن اعتراف المسؤولين الافرنسيين لم يكن إلا ستاراً لتمويه الحقائق وإخفاء الجرائم الوحشية. وقد نقلت الصحيفة الافرنسية «لوموند» صورة عن هذه المذبحة، بالكلمات التالية:

« إنني أكرر ما شاهدت، لقد رأيت كلباً مشدوداً الى وتد، جعل يزأر حين شاهدنا، وآخر ينبح من الجهة الأخرى للطريق، ورأيت دجاجاً ينقر بين الجثث بكل هدوء... لقد ميزت بين الضحايا بكل سهولة كثيراً من الأطفال الذين لم يبلغوا العاشرة من عمرهم، كما أنني لا أذكر أن شاهدت رجالاً كهولاً بينهم. وإنني أرى جيداً لأعطي بعض الأمثلة: فتاة جاثية على ركبتيها، ورأسها بين يديها... وأرى شيخاً ومجموعة مكونة من ثلاث نسوة، لم يزلن يحملن أطفالهن بين أيديهن، أما بقية السكان، فإنهم عبارة عن جثث هامدة مبعثرة بين الأكواخ... الحقيقة أنه لم تكن تنبعث أية رائحة من هذه المنطقة مما يبعث على الدهشة إذا صح أن المجزرة حدثت يوم السبت، أي يوم المعركة، ولقد تحققت كذلك أن الدماء المتجمدة لم تزل حمراء... لقد كانت الفوضى عامة، مما يفسر بأن الأهالي كانوا يفرون في كل اتجاه أثناء المذبحة... وبإمكاني التأكيد: بأنه إذا لم تكن المذبحة قد حدثت صباح الثلاثاء، كما تبين لي من كل شيء، فإنه ليس من المعقول أن تكون قد حدثت يوم السبت ».

كانت مذبحة وحشية، أكدت للجزائريين مرة أخرى ـ بعد الألفين ـ طبيعة الاستعمار الافرنسي، وما تميز به من القسوة والتطرف، وبرهنت من جديد أيضاً للجزائريين المسلمين أن الطريق

الوحيد لبناء مستقبلهم هو طريق طرد الاستعمار الصليبي الافرنسي مرة واحدة وإلى الأبد، مهما بلغ حجم التضحيات. وعلى هذا فقد زادت المأساة من تصميم المجاهدين على تطوير الجهاد؛ فقامت قوات جيش التحرير بحصار مدينتي «سكيكدة» و«كولو» وقطعت عنهما سبل الاتصال بداخل القطر، وحرمتهما من الماء والكهرباء. واستحال الساحل القسنطيني إلى جحيم لا يطاق، لا سيما بعد تدخل الاسطول الإفرنسي في المعركة، مما حمل المسلمين في المدن الى الفرار بأنفسهم نحو قواعد الثورة للخلاص من الارهاب الاستعماري. ولم تلبث قوات جيش التحرير أن انسحبت تنفيذاً لخططها الحربية، وعادت لممارسة عملياتها الصغرى في نطاق - الاغارات والكمائن -. وما كادت الحالة تهدأ نسبياً في عمالة (ولاية) «قسنطينة» حتى اشتدت في مدينة وهران. كما برزت قوات جيش التحرير بصورة مباغتة في دائرة «تلمسان» والتحمت بالقوات الافرنسية التي كانت مركزة جهدها على الساحل القسنطيني، والتي لم تكن تتوقع وجود مثل هذا العدد من الثوار في «تلمسان». وأسفرت المعارك عن انتصار قوات الثورة انتصاراً رائعاً، أرغم الإفرنسيين على التقوقع في ثكناتهم ومعسكراتهم.

٥ ـ انطلاقة الثورة في كتابة قائد فرنسي

الجنرال «بوفر» من الضباط الاستعماريين المعروفين، اشترك في حملة السويس، وكان في سنة ١٩٥٦ قائداً لمنطقة قسنطينة، وقد انصرف بعد تقاعده للكتابة العسكرية، وقد جاء في كتابه « الحروب الثورية ـ فصل الحرب الثورية المعاصرة في البلدان الاسلامية ـ الحرب الجزائرية ـ » ما يلي:

« تعطي الحرب الجزائرية مثلاً هاماً بصورة خاصة، لأنها نجمت عن موقف متطرف: ففي بداية الأمر لم يكن الثورويون سوى حفنة من الرجال، ليس بحوزتهم سوى وسائط مضحكة. وجابهوا فرنسا التي كانت تبدو قوتها في تلك الفترة قوة ساحقة. وبالاضافة الى هذا، كان الشعب الجزائري بالرغم من خيبات أمله المتعددة، لم ينضج بعد للثورة (؟) ورغم هذا، فقد قرر الثوار التاريخيون، للجنة الثورية للوحدة والعمل، الذين شجعتهم هزيمة ـ الافرنسيين ـ في ديان بيان ـ فو، والنتائج التي حققها العصيان التونسي (الاستقلال الذاتي الداخلي) بالانتقال الى العمل. وكانت فكرتهم في هذا الوقت هي إيقاظ الجماهير الجزائرية من غفوتها بتظاهرة عنيفة، تثبت إرادة الاستقلال لدى الشعب الجزائري. وكانت هذه التظاهرة قد صممت

بصورة رائعة، لأنها استهدفت الروعة في إثارة الخيالات والتصورات، وبالإضافة إلى هذا، رسمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل، منذ البداية، خطاً سياسياً واضحاً جداً استهدف في الوقت ذاته الاعتماد على التقاليد الاسلامية ـ منع شرب الخمر والتدخين ـ ومارست إرهاباً شديداً كمم بسرعة كبيرة أفواه الشعب أمام السلطات الافرنسية (قطع الانف ـ اغتيال عملاء الادارة الافرنسية من المسلمين ـ الذبح أمام شهود[1] وتجنبت اللجنة بذكاء حاد كل مجابهة مباشرة مع القطعات الافرنسية ـ باستثناء اللجوء الى الكمائن والاغتيالات على مختلف أشكالها.

كان من حظ الثوار ـ التاريخيين ـ في هذا الوقت أنهم هاجموا عملاقاً ذا قدمين من صلصال: فقد كانت الادارة الإفرنسية في الجزائر متكلسة، متصلبة، وغير كافية للاشراف الكامل على البلاد. وبالإضافة الى هذا، شلت مجموعة القوانين الشرعية ـ التي تعتبر

---

(١) جدير بالذكر أن قيادة منظمة التحرير، وقيادة جيش التحرير، لم تلبثا أن حرمتا « الذبح أمام شهود » بسبب تناقضه مع الشريعة الاسلامية. أما في موضوع الارهاب ـ المشار إليه ـ فقد كان هو الوسيلة الوحيدة لمجابهة الارهاب الاستعماري، وحماية الثورة ورجالها. ويذكر أبناء ثورة الجزائر، أن هذا الارهاب قد وجه بصورة محدودة ضد الخونة المتعاونين مع الادارة الاستعمارية (من المعمرين). وقد حفظت وثائق الثورة الجزائرية نماذج كثيرة وطرائق مختلفة لتنفيذ هذه العمليات في الجزائر ـ وفي فرنسا ذاتها ـ ومنها على سبيل المثال : توجيه بطاقات إنذارية تحمل رسوماً معينة « جمجمة » مع تحديد وقت التنفيذ. وكان هذا التنفيذ يتم في موعده مهما كانت الظروف. ومن ذلك القصة المعروفة بلجوء أحد العملاء الى الادارة الافرنسية طالباً حمايتها عندما تلقى الانذار بإصدار حكم الثورة عليه بالاعدام. وكان أن أودعته السلطات الافرنسية السجن لحمايته. وتقدم رجل آخر ـ جزائري ـ يحمل الشارة ذاتها، فأودعته السلطات الافرنسية السجن الى جوار من سبقه. ومضت فترة الانذار، وفتح باب السجن، وخرج الجزائري المهدد. وتفقدت السلطة الرجل الأخر، فوجدته مقتولاً، وعرفت أن المنفذ هو الرجل الآخر.

الجزائر فرنسية وتطبق فيها القوانين الافرنسية لزمن السلم ـ عملياً كل قمع فوري للثوار. وعلى سبيل المثال: فقد كانت القوانين المطبقة في عام ١٩٤٥ في قسنطينة، مختلفة كُل الاختلاف عن القوانين الموجودة في المنطقة ذاتها في سنة ١٩٥٤. ففي عام ١٩٤٥، كانت الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية العرفية قائمة. وفي عام ١٩٥٤ كان استخدام القطعات مرتبطاً بالسلطة المدنية، وكان على قوات الدرك ـ الجندرمة ـ أن تحقق في كل المعارك مع محضر ضبط وشهود. وهكذا جنت فرنسا على نفسها بالقوانين التي وضعتها[١].

وفضلاً عن هذا، كانت الوسائط العسكرية الافرنسية في الجزائر مثيرة للضحك (٤٩) ألف رجل أكثر من نصفهم من الجزائريين. ولهذا السبب، وبسبب وجود رجال في السلطة (مثل ميتران في الداخلية، وليونارد في حكومة عموم الجزائر، والجنرال شيريير. في الفيلق التاسع عشر التابع للجزائر العاصمة، والجنرال سبيلمان في فرقة قسنطينة) كانت عملية القمع الأولية تدعو الى الهزء والسخرية، بالرغم من ضربة ناجحة وجهها العقيد دوكورنو للثوار في الاوراس. وأضاعت فرنسا فرصة وحيدة كان بالمستطاع استغلالها لتخنق في المهد، تلك الثورة التي قام بها بضع مئات من الرجال، في الوقت

---

(١) هذه الذرائعية للدفاع عن أسباب فشل خنق الثورة غير صحيحة وغير دقيقة تماماً، فلقد برهنت مسيرة الاحداث على تحرك فرنسا الفوري، واستخدام كل وسائل القوة المتوافرة والتي كانت أكبر بكثير من قدرة الثوار عند انطلاقهم بثورتهم. فلم تكن فرنسا هي الضعيفة في هذا الموقف، وإنما كان الثوار هم الاقوياء. وكذلك الأمر بالنسبة لمقولة بوفر ـ من أن الشعب الجزائري كان مرتبطاً بفرنسا. ولو كان الأمر كذلك؛ لما قامت الثورة أصلاً، ولما حققت ما أنجزته من الانتصارات.

الذي كان فيه الشعب الجزائري بكامله مرتبطا الى حد كبير بفرنسا (؟).

ونحصل هنا على أحد أكثر الدروس وضوحاً في هذه التجربة : في الوضع الحالي، لا تكون الثورة معرضة للخنق والخطر إلا في مرحلة قيامها. ولكن للإفادة من حساسية الثورة، واحتمال تعرضها للخطر والخنق في بدايتها، ينبغي أن تتمكن قوى الأمن من الحصول فوراً على الوسائل المادية والشرعية الضرورية لعملية القمع. ولم يكن هذا هو الحال ضمن إطار التشريع الافرنسي في ذلك الوقت، والذي شل مراراً، بنوايا جديرة بالثناء، ولكنها نوايا ساذجة.

شرع الثوار الجزائريون، بعد أن نجحوا في الظهور بشكل بارز على المسرح بتوسيع بقعة الزيت التي شكلها مناخ عدم الأمن، وهم يملكون إحساساً صائباً جداً بالاستراتيجية الملائمة لثورتهم، وكان قطبا الاضطراب هما قلعتا البربر: الاوراس ومنطقة القبائل. ومن الاوراس انتقلت الثورة تدريجياً حتى شملت قسنطينة كلها، في حين نشرت القبائل نفوذها على محافظة الجزائر والجزائر العاصمة. وإزاء هذا الموقف الذي كان يتفاقم يوماً بعد يوم، قامت حكومة «ادارفور» بارسال « سوستيل » إلى الجزائر في شباط ـ فبراير ـ ١٩٥٥ كحاكم عام. ويعتبر سوستيل رجلاً ليبيرالياً كان يأمل أن يستطيع تطبيق سياسة إصلاحية، وفي انتظار قيامه بهذه الاصلاحات طلب نجدات من العاصمة ـ باريس ـ فارتفع عدد القوات الافرنسية في الجزائر الى (٨٣) ألف رجل. في غضون ذلك، وفي تموز ـ يوليو ـ وجدت منظمة التحرير الوطني نفسها قوية بدرجة كافية لشن عصيان شامل في كل محافظة قسنطينة. وكان هذا العصيان لهيباً من المذابح الشرسة،

نجم عنها إحجام « سوستيل » عن اللجوء إلى التسويات التي كان يفكر فيها. فتشددت فرنسا في موقفها، وأرسلت نجدات جديدة من فرنسا والهند الصينية الى الجزائر، واحتلت محافظة قسنطينة بالقوة. غير أن حمى الثورة انتقلت الى وهران، وعم الفساد محافظة الجزائر، واستشرت الفوضى بصورة عامة.

٦ ـ عقبات على طريق الثورة

أطلق الثوار التاريخيون شرارة الثورة بالهجوم على أكثر من ثلاثين موقعاً في مختلف أنحاء الجزائر ثم أخذ الثوار بالانسحاب، إلى قواعدهم الحصينة في جبال الأوراس. وتلقت القوات الافرنسية دعماً عسكرياً لمتابعة الأعمال التي أطلقت عليها اسم (اجراءات الأمن) أو (تدابير التهدئة)، وانطلق (الجنرال جيل) بعمليات التطهير، التي تم خلالها اعتقال اكثر من ألفي جزائري. وفي هذا الشهر ذاته ـ الأول من قيام الثورة ـ أطلق الجنرال جيل على المجاهدين اسم « الفلاقة » كما أطلق هذا الاسم ذاته على عملياته الحربية. وفي الشهر الثاني من قيام الثورة، قامت القوات الافرنسية بعملياتها في قلعتي الثورة : الأوراس ومنطقة القبائل. وأعلن المستوطنون الاوربيون سخطهم على الحكومة ومعارضتهم لسياستها ـ المتهاونة على حد زعمهم ـ ولكن الادارة الاستعمارية كانت ماضية في تطوير أعمال القتال، وزيادة حجم الاعتقالات، لا سيما بعد أن عملت على حل « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » بالرغم من إعلان السيد فاره، وابن جلول، نائب قسنطينة، معارضتهم لفكرة استقلال الجزائر التي طرحتها الثورة.

ويظهر ذلك أن طريق الثورة لم يكن ممهداً، فقد كانت هناك عقبات كثيرة ـ داخلية وخارجية ـ تعترض مسيرة الثوار الذين مضوا بعزيمة لا تفـتر، وإرادة لا تلين على تذليل تلك العقبات، واحدة بعد أخرى، حتى استقام درب الثورة، وتلاحم الشعب مع ثورته.

كانت المشكلة الأولى بالنسبة للثورة خلال مرحلة انطلاقها، هي : مشكلة التنظيم والتجهيز، فبعد الهجمات الأولى، أقام جيش التحرير قواعده في الكهوف والمغاور الجبلية في قبيلة والأوراس وشمال قسنطينة، وهي أماكن رائعة ممتازة، تصلح لحرب العصابات، وركز الافرنسيون هجومهم المضاد في الأوراس، حيث استخدموا الطائرات والدبابات، وعملوا على عزل جيش الثورة عن المواطنين بواسطة « تجميع القرى الموالية لهم » و « إبادة القرى الأخرى التي يشكون بولائها لهم » . وكان يتولى قيادة جيش التحرير في الأوراس قائدان ممتازان هما **مصطفى بن بولعيـد وبشير شيحاني**، وكانت المنطقة التي يعملان فيها جبلية وعرة المسالك تقيم فيها عدة قبائل من البربر، أدى اختلافها العنيف في ولائها للأجانب، أو معارضتها لهم الى جعل المجهود المشترك أمراً صعباً للغاية. وبعد استشهاد عدد من القادة العسكريين المحليين على التعاقب، وخلال فترة قصيرة، لم يعد من السهل على قائد واحد أن يتولى السلطة الكاملة (وقد استمر ذلك حتى سنة ١٩٥٧). ولكن على الرغم من ضعف التنسيق الداخلي، في هذه المنطقة، فقد ظل عدد أفراد جيش التحرير في ارتفاع مستمر .

أما المجاهدون في منطقة قبيلة، فقد نموا بصورة أكثر تدرجاً وبطئاً. وكانوا تحت إشراف قادة أكفاء أيضاً، من أمثال : **كريم بلقاسم ورمضان عبانة وعمارنة وناصر**. وركز المجاهدون جهدهم، بعد

الهجمات الاولى، على إزالة الخونة، وهي مهمة استغرقت منهم تسعة أشهر على أقل تقدير. أما في شمال قسنطينة، فقد تمكن **يوسف زيروت** - وهو من القادة الأكفاء بدوره - من تنظيم الحدود الجزائرية - التونسية بنجاح، وسرعان ما حقق الاتصال مع البعثة الخارجية لتأمين الأسلحة للثورة. ولم يتأثر الثائرون في الولايات الثلاث تأثراً خطيراً من حل « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » ومن اعتقال عدد كبير من القادة الوطنيين. ذلك أن عمليات الانتقام العمياء التي مارستها القوات الافرنسية، وإبادة القرى، قد أسهمت في توسيع صفوف الثورة، وتطوير جيوشها. وبذلك تكون فرنسا قد خدمت قضية الثورة على غير إرادة منها، وخلافاً لما كانت تريده.

كانت المشكلة الحادة الثانية، هي مشكلة الحصول على السلاح ووسائط القتال. فقد وجدت الثورة نفسها وهي تجابه القوات الافرنسية المتفوقة، وليس لديها إلا القليل من السلاح، الأمر الذي كثيراً ما دفع الثائرين الى اقتحام المخاطر، ومهاجمة المواقع العسكرية الافرنسية، للحصول على السلاح فقط. وكثيراً ما كانت مثل هذه العمليات ترتدي طابع المغامرة الخطرة وغير المأمونة. وهكذا، لم تمض اكثر من أشهر ثلاثة على بداية الثورة، حتى أصبح **مجاهدو الأوراس** بدون عتاد تقريباً. فمضى العقيد **مصطفى بن بولعيد** في مهمة للحصول على بعض العتاد، عندما اعتقل على الحدود الليبية. وأدت مشكلة النقص في الذخائر والأعتدة الى ظهور بعض الخلافات - وحتى الحزازات. بين المجاهدين فوق أرض المعركة من جهة، وبين رفاقهم من أعضاء البعثة الخارجية (وزال هذا السخط بصورة طبيعة في سنة ١٩٥٧ عندما تمكن القادة في الخارج من شحن كميات ضخمة من

السلاح والعتاد الى الثورة) .

كانت المشكلة الاستراتيجية الأساسية التي واجهتها الثورة في الأشهر الأولى، هي توسيع نطاق الثورة من الجبال الواقعة في شرق الجزائر إلى سهول قسنطينة وغيرها. وكان من الضروري، والملح جداً، توسيع هذا النطاق، لا سيما وأن المفاوضات الطويلة بين تونس وفرنسا حول الحكم الذاتي المحدود، كانت قد وصلت الى نهايتها. ووقف الجزائريون، الذين كانوا يعتمدون الى حد كبير على مرور الأسلحة والرجال اليهم عبر تونس، الى جانب زعيم حزب الدستور التونسي الجديد، صالح بن يوسف، في معارضته لسياسة الحبيب بورقيبة الرامية الى - الاستقلال على مراحل - . ولكن بعد توقيع اتفاقية الحكم الذاتي التونسي، ومحاكمة صالح بن يوسف وصدور الحكم بإعدامه، أعادت جبهة التحرير الوطني الجزائري تقويم مواقفها السياسية، وأخذت في التعاون مع - بورقيبة - في قضية نقل الأسلحة والعتاد، وفي المهام الدبلوماسية. ولكن عدداً كبيراً من زعماء الجبهة آنذاك، كان يؤثر لو استمر التونسيون في القتال، إلى أن تنال كل من تونس والجزائر استقلالهما الكامل.

* * *

تلك هي السطور الأولى في الملحمة الرائعة لثورة شعب الجزائر المجاهد. وهي سطور تقصر عن وصف المعاناة التي عرضت لها الثورة في أيامها الأولى. وتبقى القصة المثيرة في ملحمة الثورة هي تلك التي نسج الثوار خيوطها، بجرأتهم وإقدامهم، ببطولتهم وايمانهم، بمعاناتهم وتضحياتهم. هناك، فوق ميادين الجهاد، حيث تختلط كل المشاعر الإنسانية لتتفجر عن إبداع تفجر الحياة ذاتها عن

إبراز كل معالمه وأبعاده. هناك فوق ميادين الجهاد، حيث تنصهر كل الانفعالات في بوتقة واحدة، بوتقة الايمان والحب، الايمان بالله، والحب للوطن وأهل الوطن.

٧ ـ الثورة في وثائق ثوارها

آ ـ الإعداد للثورة

« لقد بدأ تاريخنا بتفجير الثورة في خنشلة » هذا ما قاله أحد الأبطال ممن عايشوا مرحلة مخاض الثورة،وشاركوا في تفجيرها[١] ولكن الوصول الى هذه البداية، بداية الثورة ـ يتطلب العودة لاستقراء ملامح تلك المراحل المختلفة للأنشطة الوطنية التي قامت بها مجموعة من الطلاب الشباب الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إيقاظ الوعي الوطني، بعد ماأدركوه من الأعباء المرهقة التي تلقي بكل ثقلها على الحياة اليومية للشعب الجزائري، والمواطن الجزائري، وقد بدأت مسيرة الأحداث بالتحرك، عندما قامت خلية من الطلاب المجاهدين فأمسكت بزمام المبادأة، وأخذت في توجيه الأحداث من خلال الإمساك بقيادة الحزب، لا سيما بعد أن تمت إقالة عدد من المسؤولين فيه. ومن ثم اتخاذ الموقف الحيادي، وانتهاج سياسة استقلالية بعد تمزق « الهيئة الثورية للوحدة والعمل » تحت ضربات الاستعماريين.

---

(١) REF: RECITS DE FEU (SNED ALGER) P.P. 1 29
وكاتب البحث هو « سالم بوباكور » وهو من قدامى المجاهدين في حركة انتصار الحريات الديموقراطية، ثم في التنظيم السري « للحركة الثورية للوحدة والعمل » وقد اشترك الباحث في مرحلة الإعداد للثورة وفي تنفيذ عملياتها، وهو هنا يعرض تفجير الثورة في « خنشلة » بصورتها الواقعية.

وأخيراً، مرحلة الإعداد لثورة الفاتح من نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٤ . والعمل على تفجيرها. وقد تم ذلك في « خنشلة » على الرغم من كل العوائق التي لم يكن أقلها - على سبيل المثال - عدم توافر أكثر من سبع قطع أسلحة في أيدي المنفذين، بينما كان من المقرر وفقاً للمخطط الأساسي الذي أشرف على وضعه « مصطفى بن بولعيد » تأمين ما لا يقل عن أربعين قطعة سلاح وإشراكها في المعركة.

لقد بدأت القصة على كل حال - إلى عام ١٩٥٠ - حيث تم الاتصال بالوطنيين في خنشلة، وكان هؤلاء يثقون ثقة مطلقة بضرورة وجود - حزب وطني ثوري منظم - يتولى قيادة الصراع المسلح من أجل استقلال الجزائر. وكان مناخ هؤلاء الشبيبة كافياً لإثارة الحماسة في أوساط الطلاب وتنظيمهم وإعدادهم للعمل الذي سيتفجر في الليلة التاريخية. وكان يتم ضم المتطوع بصفة « مجاهد عادي » حتى إذا ما برهن على كفاءته، أصبح مسؤولاً عن إحدى الخلايا. وكانت الخلية تضم المجاهدين من مختلف الفئات الاجتماعية للشعب، وأولهم بدهياً فئة الفقراء البائسين. وكان المبدأ الثابت هو: « أن خدمة الوطن ليست حكراً لأحد ». وتعرف المجاهدون الشباب من خلال تنظيمهم على تاريخ الجزائر. وجهاد الشعب الجزائري ضد الاستعماريين، وهو الجهاد الذي لا بد من استمراره حتى يستعيد الوطن حريته، وحتى يتم له استقلاله. وكان هؤلاء الطلاب الشبيبة يترجمون عقيدة الحزب بالحماسة للقضية الوطنية، وبالإرادة الطوعية للعمل، وكذلك بالانضباط الذاتي واحترام التوجيهات العامة للقيادة. وقد ساعد التكون السياسي للحزب على تغيير مفاهيم هؤلاء الشباب ومواقفهم تغييراً تاماً. وظهر هذا التغيير في علاقات الشبيبة

بعضهم ببعض وعلاقتهم مع جماهير الشعب. فبالأمس القريب، كان هؤلاء الشبيبة يعيشون حياة اللامبالاة في عالم غامض مضطرب، يحيط بهم الفراغ السياسي، ويخيفهم غياب القيادة التي ترى الأمور بوضوح تام. وها هم بعد أن انضموا لتنظيم الحزب وهم يعرفون أهدافهم، ولديهم الاستعداد للتضحية بحياتهم من أجل حياة وطنهم، ويعيشون حياة التضامن، ويشعرون بالأخوة الحقيقية لكل إنسان جزائري. ولم يعد الجهاد بالنسبة لهم مجرد شعار يرفعونه. لقد أصبح مضمون الجهاد يفرض عليهم العمل الدؤوب والجهاد، ومناقشة المواقف السياسية بعقلية متحررة، من أجل تحويل النظرية الى ممارسة عملية. وأصبح كل فرد من الطلاب، على الرغم من حداثة سنه وصغر عمره الزمني، وهو يتمتع بقدر كاف من النضج الذي يمكنه من تحمل المسؤولية، واكتشاف الحقائق السياسية والاجتماعية التي تتطلبها بلاده : « **لقد أصبح حب الجزائر هو كل شيء في حياة هؤلاء الشبيبة** ».

انحصرت أنشطة الشبيبة في الحزب طوال الفترة ما بين العام ١٩٥٠ والعام ١٩٥٤ بالأعمال الرتيبة - الروتينية - والتي كانت تمارسها كل الأحزاب السياسية ؛ ومنها : تنظيم الخلايا والاجتماعات، وإجراء المقابلات، وخوض المعارك الخطابية، وبيع الصحف والنشرات التي يضعها الحزب، وجمع الاشتراكات، ووضع البيانات التي تتضمن الشعارات المعادية للاستعمار، وكتابة الشعارات الوطنية على الجدران، والتركيز بصورة خاصة على ما يضمن للناس التعاطف مع أهداف الحزب، من خلال شرح المذكرة الشهيرة التي قدمتها (حركة انتصار الحريات والديموقراطية) الى

مجلس الأمن، والتي تطالب بإقامة دولة جزائرية تعمل في إطار الحياد الايجابي بين الدولتين العظميين : الامبريالية والاشتراكية. وأخيراً، البحث عن الوسائل لدعم الروابط مع الكتلة العربية -الإسلامية، وتحقيق اتحاد دول المغرب العربي- الاسلامي (شمال أفريقيا).

ولم يكن باستطاعة الحزب وهو يمارس هذه الفعاليات كلها المحافظة على سرية تنظيمه. وخلال هذه الفترة، وبنتيجة عملية تزوير الانتخابات، أصبحت كل التنظيمات الحزبية مكشوفة، مما جعلها عرضة لضربات الإدارة الافرنسية. ولم يحدث أن بدأت بعض الحركات الوطنية بالتنظيم السري، إلا بعد عمليات الاعتقال الجماعي للمناضلين، في إثر المؤامرة الإفرنسية ضد حركة (انتصار الحريات الديموقراطية) في نيسان - ابريل - سنة ١٩٥٠، وما أعقب ذلك من عمليات انتقامية ضد مواطني الأوراس ومواطني سيدي علي بونبي ونيدورما وماغنيا. لا سيما وقد أصبح أعضاء الحزب دريئة لسهام السلطة، مما دفع الكثيرين للانسحاب منه، وهكذا أخذ الحزب في الانتقال إلى العمل- نصف السري - مع إعادة تنظيم الخلايا بسبب انسحاب بعض المسؤولين القدامى في الحزب.

ووجدت هيئة الحزب في (قسما) أنها باتت مكونة من خمسة أعضاء يمثلون (حركة انتصار الحريات الديموقراطية)، وأصبح لزاماً على هؤلاء عقد اجتماعاتهم الدورية - كل اسبوعين - في مكان سري، وبقي الأمر كذلك حتى شهر آذار - مارس - ١٩٥٤. حيث تم الانفصال عن حركة انتصار الحريات الديموقراطية. فاتخذت مجموعة (قسما) التابعة لمركز (خنشلة) موقف الحياد الايجابي والمستقل عن الكتلتين الأساسيتين

المتصارعتين على مستوى القمة، واللتين كانت أحداهما ترفع شعار « اللجنة المركزية » والثانية ترفع شعار « التكتل - خلف مصالي الحاج ». وكان الهدف من اتخاذ موقف الحياد برئاسة « عباس لغرور » وتوجيه « بشير شيحاني » هو محاولة توحيد كل القوى في أوساط الحزب ودعمه وتجديده .

لقد كان هذا الحزب الوطني الجزائري، هو أقرب الأحزاب لتطلعات كتلة الجماهير الشعبية، وهو أملها الوحيد، وقد جاءت هذه الأزمة الداخلية مناسبة لبعض أعضاء الحزب - الذين أتعبهم النضال - فقرروا الإعلان عن انسحابهم من دائرة الصراع، وتخليهم عن النضال المضاد للاستعمار. ورافق ذلك حالة من اليأس - من انتصار القضية - علاوة على ما كان يثيره الغموض في الموقف السياسي، والاتجاه الخاطىء الذي أثاره تحلل الحزب الوطني، وهو الذي بقي طويلاً في طليعة الأحزاب الوطنية حماسة واندفاعاً في مجال العمل لاسترجاع الحقوق الوطنية. وظهر بأن الآمال كلها قد ضاعت وتمزقت يوم قررت حفنة من المجاهدين متابعة الصراع حتى تحقيق النصر النهائي. ويعني ذلك - انتزاع الاستقلال باللجوء الى وسيلة الصراع المسلح، واستخدام العنف المباشر، وإحياء لهيب الثورة التي بدأت جذوتها بالخمود في نفس المناضلين - فتم طرح فكرة « الثورة الشاملة » باعتبارها المخرج الوحيد لتحرير الجزائر. وكانت هذه الحفنة من الرجال تمتلك إيماناً راسخاً لا يتزعزع، وخلقا كريماً، واستعداداً للتضحية بكل شيء من أجل قضية الوطن .

عقدت جماعة التكتل «خلف مصالي الحاج» مؤتمراً لها في ١٥ تموز - يوليو - ١٩٥٤ بمدينة «هورنو» ببلجيكا، ومثل «خنشلة» في هذا الاجتماع - الحاج عبد الله مراد - وفي ١٥ - آب أغسطس - ١٩٥٤ عقدت جماعة «اللجنة المركزية» مؤتمراً لها في مدينة الجزائر، اشترك فيه عن خنشلة كل من «لغرور وشيحاني» بصفتهما مراقبين، لا يحق لهما الاشتراك في المناقشات، نظراً لما هو معروف من مواقفهما الموصوفة «بالثورة المتطرفة». وكانت فائدة المؤتمرين كبيرة من حيث نتائجهما التي دعمت مبدأ ضرورة الانتقال مباشرة للعمل العسكري،وأصبح هذا الانتقال هو الفكرة المهيمنة على تفكير معظم المجاهدين الذين خابت آمالهم نتيجة انقسام الحزب وتمزقه. والمهم هو أن هذا التمزق بقي محصوراً على مستوى القيادات، أما قواعد الحزب فقد بقيت سليمة ومخلصة لفكرة الثورة ومبادئها، ولم تظهر أي نكوص أو تراجع عن خط الثورة. كما لم تظهر أي اهتمام بتلك الصراعات المحتدمة في القمة والتي كانت ذات صفة حزبية أو شخصية، أو من أجل النفوذ والسلطة على المستوى الداخلي للأحزاب.

وقد انتهت تلك الصراعات بإكساب المجاهدين المزيد من التصميم والمزيد من التصلب في مواجهة ما كانت تظهره قيادة الكتلتين المتصارعتين من عناد وتصلب، وهما متجاهلتان ما كانت تطرحه العناصر النقية والطاهرة في الحزب من أن «حرب التحرير» قد باتت هي المخرج الوحيد لما أنزلته الكتلتان المتصارعتان بالحزب، فانحدرتا به الى المستنقع. وتابعت العناصر المخلصة طريقها وهي تطالب

بالحاح تكوين حركة ثوروية صلبة، لديها التصميم للانتقال الى العمل العسكري المباشر ـ طريق الثورة ـ.

مرت الفترة من شهر آذار ـ مارس ـ الى حزيران ـ يونيو ـ من العام ١٩٥٤، وخلايا المجاهدين في « خنشلة » تمارس نشاطها وسط مناخ من الشكوك، وترفض إجراء أي اتصال مع قيادة الكتلتين المتصارعتين. لقد كان عملها مركزاً على قواعد الحزب، حيث وجهتها نحو شراء الأسلحة. وأثناء ذلك كان بعض المناضلين في المدن يصدمون بعضهم ببعض، ويتنافسون فيما بينهم، هؤلاء الذين يريدون بيع « صحيفة الجزائر الحرة » الصادرة عن جماعة التكتل، وأولئك الذين يريدون بيع « صحيفة الأمة الجزائرية » الصادرة عن جماعة اللجنة المركزية. وكان الصراع بين الكتلتين كثيراً ما يعيق مشاريع « تنظيم خنشلة » خلال مرحلة الإعداد لانطلاقة الثورة، لا سيما في مجال تجنيد الرجال وتنظيم وشراء الأسلحة، إذ أن هذا الصراع كان يزيد من غموض الموقف في تفكير الجماهير، وكان من أهم نتائج الصراع بين الكتلتين، إحباط مخطط للحصول على أسلحة حربية من « نيميشا ». وإجهاض محاولة للاتصال بالفرسان الصبايحية ـ السباهيين ـ الجزائريين، الذين كانوا يتمركزون في « خنشلة ».

وكان المخطط يعتمد على اشتراك هؤلاء الفرسان في اليوم الأول لانطلاقة الثورة « يوم ـ ي » والقيام بالعمل من داخل الثكنة العسكرية. وعلاوة على ذلك كله، فقد اضطر عدد من المجاهدين ـ بسبب انقسام الحزب الى كتلتين متصارعتين ـ الى الخروج من دائرة الظل، ومغادرة مواقع العمل السري، لتنظيم

« اللجنة الثورية للوحدة والعمل ». وكان هؤلاء من المغمورين الذين لم تتردد أسماؤهم على ألسنة الجماهير. وقد حرصوا على تنظيم حركتهم الجديدة في إطار من السرية المطلقة. وضموا اليهم كل الأنصار المؤمنين بقضية « الصراع المسلح » سواء كان هؤلاء من العناصر القديمة في التنظيم السري « المنظمة الخاصة أو الشرف العسكري » أو كانوا من المجاهدين الحياديين في الكتلتين المتصارعتين. وقرروا الانتقال الى العمل العسكري في أقرب فرصة ممكنة. كما قرروا أن تتبع عملية تفجير الثورة نشر المجموعات المسلحة في كل الأقاليم لتنفيذ الأعمال الثورية. وفي يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١٩٥٤، كان « عباس لغرور » يتصل بالمجاهدين في « خنشلة » واحداً بعد واحد، ليطلعهم على تطورات الموقف. ويذكر المجاهد « سالم بوبكر » ما حدث له في ذلك اليوم بالكلمات التالية :

« . . . دخلت على عباس لغرور، وكان أول ما أثار انتباهي هو عدم وجود صورة مصالي الحاج في المكان الذي كانت تتصدره. ولاحظ عباس لغرور دهشتي فقال لي مبادراً : لقد حطمتها، ودمرت صاحبها لأنه خان القضية، يجب علينا نسيان الحزب القديم الذي لم يثمر غير الروتين. إن الجزائر لن تصل الى استقلالها بتلك الأساليب البيروقراطية والبرامج الاصلاحية، فكيف لنا خوض الصراع على جبهتين؟.. هل عن طريق الشرعية - الافرنسية - أم عن طريق لعبة البيانات الخطابية، أم عن طريق العمل السري للثورة؟... إنه أمر من المحال تحقيقه، يجب اللجوء الى خيار وحيد للعمل. لقد أصبح الضعف

في حزبنا واضحاً كل الوضوح. وجاءت الأزمة الأخيرة لتمزقه تمزقاً تاماً. يجب الخروج من أزمة الانقسام الى العمل المباشر » ثم كشف لي النقاب عن وجود مجموعة ثورية تعالج قضية البدء قريباً بالصراع المسلح في الجزائر. وفي نهاية المقابلة قال لي : ها نحن يا أخي العزيز سنبدأ بالعمل المباشر. وواجبك هو أن تكون في عداد التنظيم الجديد الذي سيوجه ضربته الى العدو. وسيفرض وحدة شعب الجزائر من خلال شعار الاستقلال، وهو ما نعمل لتحقيقه منذ سنوات. ثم طلب إلي « عباس لغرور » أن أقسم على القرآن الكريم بألا أخون الحزب، وأن أخدم أهدافه حتى آخر لحظة من حياتي. وبعد ذلك طلب إلي شراء قميص متين وبنطال وسترة من اللون الخاكي، وزوج من الأحذية المطاطية، ومصباح يدوي، مع الحصول على أكبر كمية ممكنة من أدوات وأدوية الاسعاف، والمواد الطبية والبقاء على اتصال دائم معه .

نظمت « الهيئة الثورية للوحدة والعمل » قيادة « خنشلة » في نهاية شهر حزيران - يونيو - ١٩٥٤ وضمت هذه القيادة أربعة أعضاء واجبهم الإعداد للهجوم على مواقع الإفرنسيين في مدينة « خنشلة » وألقيت مسؤولية هذا الهجوم على عاتق : (عباس لغرور وغزالي بن عبيس وصلاح أوغيد وسالم بوبكر). ومضت الفترة بين اوائل تموز - يوليو - ويوم ٣١ تشرين الاول - اكتوبر - في عمل مستمر، وجهد متواصل،لاجراء التدريب، وتطوير مخططات الهجوم على الأهداف الهامة في المدينة. وشراء الأسلحة والذخائر والألبسة العسكرية والتجهيزات الطبية والأجهزة اللاسلكية - الراديوات - وتنظيم وحدات الفدائيين - شبه العسكرية - وانتقاء

عناصر المنفذين من الموثوقين، والتدريب على استخدام المتفجرات، ووضع الصواعق المفجرة، والقاء المحاضرات النظرية عن قتال العصابات وأساليب الإغارات والكمائن، مع إعداد مراكز تجمع الثوار والملاجيء وتجهيزها بالمواد التموينية. وكانت الغابات هي المراكز المفضلة للاجتماعات، والتدريب على استخدام الاسلحة ورمي القنابل - حيث كان يتم استخدام الحجارة للتمرين نظراً لعدم توافر كمية من قنابل التمرين او القنابل الحقيقية- وتم اختيار (النبع الدافىء) على بعد خمسة كيلومترات من (خنشلة) في شهر أيلول- سبتمبر- ١٩٥٤ للاجتماع والتدريب، عوضاً عن (عين سيلين) وذلك بسبب وجود غابة كثيفة يغطيها السياج، وتكثر فيها الوهاد والوديان، فكانت بميزاتها الطبيعية من أفضل الأمكنة للاجتماعات والتدريب واجراء الرمي.

وفي أعقاب التمرين الأول، قام « عباس لغرور » بتقديم الثوار المجاهدين الى « مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني » اللذين قدما للتفتيش في منطقة « خنشلة ». ووقف « بن بولعيد» ليقول: « ستحمل الجزائر السلاح قريباً لخوض الصراع ضد فرنسا. من أجل انتزاع حقوقها، والتحرر من ربقة الاستعمار ». ثم طلب الى الثوار الحصول على أكبر كمية ممكنة من الأسلحة، لأن الساعة قد اقتربت، كما أصدر أوامره « باتخاذ أقصى أسباب الحذر، ومراعاة قواعد الأمن والسرية ضد عناصر الشرطة والمخبرين ورجال الادارة الاستعمارية، والامتناع عن أي اتصال ما بين المجموعات بصورة

مكشوفة أو بالطرائق العادية، واختيار العناصر الأكفاء الشجعان والعناية بهم »، ثم تولى الحديث بعد ذلك « بشير شيحاني » فشرح الوقائع التي هيمنت على المواقف السياسية للجزائر منذ احتلالها في سنة ١٨٣٠، الى أن قال: « **لم تحقق الوسائل السياسية العادية أي نتيجة إيجابية، وعلى الشعب الجزائري، وبعد أن استنزف كل إمكانات الصراع السياسي أن ينتقل الى العمل المباشر، وذلك بمهاجمة المراكز العسكرية، ومراكز الشرطة، وكل المنشآت العسكرية والادارية التي تتوافر فيها الأسلحة** ».

لم يحدد « بشير شيحاني » في حديثه الى المجاهدين موعد البدء بالأعمال القتالية، ولم يحدد لهذه الأعمال أهدافها، أو تفاصيل تنفيذها، غير أن ما كان واضحاً هو أنه يجب الانتهاء خلال أيام قليلة من وضع مخطط تفصيلي للهجوم على المدينة. وانصرفت الهيئة الثورية في « خنشلة » لوضع مخطط الهجوم وإعداد العناصر لتنفيذه، وجرى نقاش طويل بهذا الشأن، انتهى بالاتفاق على ما يلي: « ١ ـ الاغارة على مركز الشرطة ـ كوميسيير البوليس ـ ٢ ـ مهاجمة المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ ٣ ـ الإغارة على الثكنة العسكرية ٤ ـ الإغارة على مركز الدرك ـ الجندرمة ـ ٥ ـ تفجير المحولات الكهربائية التي تغذي المدينة بالطاقة، وتدميرها.

٦ ـ قطع الخطوط الهاتفية التي تصل « خنشلة » بمدينتي « عين البيضاء » و « باتنة » لعزل المدينة عن كل اتصال خارجي » وبعد ذلك تم وضع لائحة تتضمن أسماء عناصر المنفذين الذين بلغ

عددهم ٤٠ - رجلاً[1] وصدرت بعد ذلك تعليمات صارمة بشأن طرائق التنفيذ، تضمنت ما يلي : « **يجب العمل منذ اليوم الأول للثورة على احترام الاطفال والنساء والشيوخ من المدنيين، يجب أن لا يكون عملنا ضرباً من اليأس أو تعبيراً عنه، بل يجب أن يكون عملاً واعياً وعقلانياً ومنظماً. فقد تؤدي أقل خطوة خاطئة الى تدمير البناء الثوري الذي تم إنجازه بعد صبر طويل، وبجهود جبارة وتضحيات كبيرة » وقد تم الاعتماد - عند التخطيط - على إعطاء العمل بالدرجة الأولى شكل تظاهرة نفسية واسعة النطاق - قدر المستطاع - بهدف إثارة انتباه الجماهير والرأي العام الداخلي والدولي إلى قضية الجزائر، والتي هي قبل كل شيء قضية سياسية .**

عقد اجتماع نهائي في الجزائر - العاصمة - يومي ٢٣ و٢٤ تشرين الاول - اكتوبر - ١٩٥٤، حدد فيه المؤتمرون وبصورة نهائية موعد انطلاقة الثورة « يوم - ي » ليكون في اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - وقسمت البلاد إلى خمس مناطق عسكرية للعمليات، وهي : وهران والجزائر والقبائل وشمال قسنطينة والأوراس. وبقي أمر تنظيم المنطقة السادسة (منطقة الصحراء) مؤجلا الى ما بعد انطلاقة الثورة. غير أنه تم اختيار العضوين

---

(١) قتل منهم عند التنفيذ ٢٣ مجاهداً وبقي ١٧ على قيد الحياة، وتجدر الاشارة الى أن قيادة الثورة في « خنشلة » استعانت ببعض العناصر من غير رجالها، ولكن من المتعاطفين مع الثورة. مثل « السائق مهناوي العياشي » الذي تم تكليفه بنقل وسائط الاتصال والامدادات بسيارته - الاجرة - فتم اعتقاله، ولم تفرج عنه فرنسا الا عندما تم استقلال البلاد، حيث خرج وهو يعاني من الشلل، نتيجة ما تعرض له من التعذيب في سجنه، علاوة على إصابته بأمراض مستعصية. فلم يعش نعمة الاستقلال طويلا بعد أن تم تحريره، وقضى نحبه.

اللذين سيقع عليهما عبء مسؤولية قيادة المنطقة وتنظيمها، وإدارة الأعمال القتالية فيها، وهذان المسؤولان هما : « عبد القادر المهدي » الذي أحجم في اللحظة الأخيرة عن الاشتراك في الثورة. و « الرقيب سليمان » الذي اختفى من دائرة العمل، منذ الأيام الأولى لاندلاع لهيب الثورة[1] وعند ذلك اتخذ « مصطفى بولعيد» قراره بضم منطقة الصحراء الواسعة الى منطقة الأوراس. وذلك ريثما يتم تنظيمها من جديد، وهو التنظيم الذي لم يظهر إلى الوجود الا في العام ١٩٥٦، بفضل الجهود المستمرة التي بذلها « سي أحمد بن عبد الرزاق » المعروف باسم « الكولونيل هاويس » .

وصل « عباس لغرور » الى « باتنه ـ أو ـ بطنه » يوم ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ للاشتراك في مؤتمر تقرر عقده برئاسة « مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني ». وقد تم عقد هذا المؤتمر في منزل « سالم بو بكر » نظراً لكونه منعزلاً وبعيداً عن المراقبة ـ وذلك في الساعة ٢١٠٠ ـ وبعد افتتاح الجلسة، تمت قراءة نصين كتبا باللغة

---

(١) قامت قيادة الثورة بالبحث عن هذين العنصرين اللذين انقطعت أخبارهما بصورة مباغتة، وعلى الرغم من التحريات الواسعة التي قام بها ـ بن بولعيد وشيحاني ـ والتي استمرت طوال الشهرين الاخيرين من العام ١٩٥٤، من أجل إعادة الاتصال بهما، وبعث الثورة في منطقة الصحراء. الا أن الجهود فشلت في العثور على أي أثر لهما. وتبين بعد ذلك أن « عبد القادر المهدي » قد بقي معتزلاً في بسكرة. أما « الرقيب سليمان » فقد التحق بفرنسا، ليكون بعد ذلك سبباً في اعتقال « رابح بيطاط » في الجزائر، ونظراً لغياب هذين العنصرين، وبعد انتظار طويل، نتج عن غياب المسؤولين والموجهين في « منطقة الصحراء » تم تكليف زمرة من الوطنيين للهجوم على الوادي الصحراوي في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٥٤. وقد توجهت هذه الزمرة الى الصحراء ـ من قوة الجنوب ـ بقيادة: الأخضر حماه ومبروك عماره).

الافرنسية، وكان قد تم إعدادهما من قبل، وكان النص الأول موجها باسم « جبهة التحرير الوطني » إلى الشعب الجزائري. وهو يحدد بوضوح الأهداف السياسية للثورة؛ اما النص الثاني فكان موجهاً باسم « جيش التحرير الوطني » وقد حملت الورقتان علم الجزائر : « الابيض والأخضر والهلال والنجمة في الوسط باللون الأحمر). وكانت هذه هي المرة الاولى التي يتم فيها الإعلان عن وجود الحركة الثورية .

ب ـ الله أكبر ـ خالد ـ عقبة

« . . . جلس المؤتمرون بصمت، وهم يستمعون إلى ـ بيانات الثورة ـ تتلى عليهم، ولم ينبس « لغرور » ببنت شفة، وإنما راح غارقاً في تفكير عميق، في حين كانت دموع. . اوغاد « تنساب على وجنتيه، أما « بن عباس » فقد كان يردد بلا انقطاع : الله أكبر ! لقد أقبل أخيراً فجر اليوم العظيم. وخرج « لغرور » عن صمته ليقول بلهجة هادئة : لقد حدد يوم (ي) بصورة نهائية، ليكون ليل ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ المصادف لليلة يوم الأحد، وليبدأ العمل في الساعة الواحدة من صباح الاثنين الفاتح من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ . وسيقوم الثواربهجماتهم في وقت واحد، وفي كل أنحاء الجزائر. وستكون كلمة السر للعمليات في هذه الليلة هي (خالد) أما كلمة الإجابة فهي (عقبة). وطلب (لغرور) من المؤتمرين الاحتفاظ بموعد يوم الهجوم وساعته. وعدم إعطائه للمجاهدين المنفذين قبل يوم الأحد. ثم بدأ القادة المؤتمرون ببحث الاستعدادات الأخيرة قبل البدء بالهجوم .

تم بعد ذلك توزيع الأعمال على القادة، فكانت واجباتهم كالتالي :

١ - (لغرور) وواجبه تنسيق التعاون بين مختلف زمر الهجوم، والاتصال مع « مصطفى بن بوالعيد » لنقل الأسلحة وتلقي التعليمات الأخيرة .

٢ - (اوغاد) وواجبه جمع الزمر في « عين سيلين » وتنظيمها، مساء السبت ٣٠/١٠/٥٤ وحتى ٣١/١٠/١٩٥٤ (وتقع عين سيلين بدورها على بعد خمسة كيلو مترات من خنشلة) .

٣ - (بن عباس) وواجبه الإشراف العام، والاتصال بالمجاهدين بصورة إفرادية لإعلامهم بالموقف وتكليفهم بواجباتهم، حيث كان لزاماً على كل واحد من هؤلاء التوجه بوسائله الخاصة إلى المكان المحدد للاجتماع .

٤ - (سليم بو بكر) وواجبه نقل بقية الأسلحة التي ستستخدم في الهجوم، والتي كانت مخزونة في منزله، وتضم بعض قطع الأسلحة والذخائر، وقنابل كوكتيل مولوتوف وقنابل حارقة ومواد طبية وألبسة وأطعمة[1].

---

(١) تم توزيع الزمر على الأهداف بإشراف هؤلاء المسؤولين الأربعة عن القيادة، فجاء التنظيم للعمل كالتالي:
١ - زمرة الإغارة على مركز الشرطة: وهي برئاسة « غزالي بن عباس » و« معاونه « صلاح أوغاد » ومعهما عبد الكريم بنكوت وشعبان لغرور والشامي لارغات، وراشد لحمين، وحمودي عقابا.
٢ - زمرة الهجوم على المجمع المشترك: برئاسة « عباس لغرور » وتضم محمد شامي، وعبد القادر بورماده وقدور بورماده، ومحمد سمور، وإبراهيم بوعطيل، ومحمد ليموشي.

←

انصرفت كل زمرة من الزمر، بعد التوزيع وتحديد الأهداف، لمعاودة دراسة مهمتها مرات متتالية مع إجراء استطلاع دقيق للأهداف، ومحاور الاقتراب منها والوصول اليها. وكان مركز الشرطة هو أفضل مركز تمت دراسته، وكذلك المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ إذ كانت محاور الوصول اليهما سهلة بالنسبة للمنفذين الذين أتيحت لهم فرصة استطلاع الأهداف مرات عديدة قبل بدء الهجوم. وقد اشترك «لغرور» في كافة الاستعدادات. ونسق التعاون بين كافة الزمر بصورة دقيقة. ثم طلب الى «سليم بو بكر» عدم الاشتراك في الهجوم على «خنشلة» تنفيذاً لأوامر «مصطفى بن بو العيد» التي نصت على إعفائه من مهمة قيادة زمرة من الفدائيين كان من المقرر لها الهجوم على المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ حيث يقيم المزارع الأوروبي الوحيد في منطقة الأوراس. وأمام هذا التعديل، تولى «لغرور» قيادة زمرة «سليم بو بكر» للاغارة على المجمع المشترك. وتم تعيين «عمور سعدي» ليحل محل لغرور في قيادة الهجوم على المعسكر. ثم حددت مهمة «سليم بو بكر» لتكون

⟵

٣ ـ زمرة الإغارة على مركز الدرك: برئاسة «علي خشرور»، وتضم علي غرياني، وربيع الأعور، ومحمد شاكر، وعمار حمام، وكامل مخلوفي، وعلي حفتاري.

٤ ـ زمرة الهجوم على الثكنة العسكرية: برئاسة «عمور سعدي»، وتضم مسعد ناصر صوفي، وعبد الحميد زيروالي، والحسين مارير، وادجال، وفرحات عريف، وحسين عريف، وعمر زايدي، وسليمان زايدي، ورمضان بن زيدان، وعبد الرحمن نواصرية، ومحمد بوهلالا، وصلاح حفتري، وأحمد زايدي.

٥ ـ زمرة قطع الأسلاك الهاتفية، وتدمير مركز التحويل الكهربائي، وتتكون من: إبراهيم عثماني الملقب بالتيجاني، يعاونه كيلاني لارغات.

على النحو التالي : « البقاء في القاعدة الخلفية مع اثنين من الأخوة المجاهدين. بمهمة اتخاذ الاجراءات الضرورية لمتابعة تنفيذ العمل في حال تعرض جميع الذين يقومون بالهجوم على « خنشلة » للقتل. وعليه الاحتفاظ بكافة الوثائق والوسائط المادية من أجل إكمال المهمة. وبعد ذلك، يتوجه من بقي على قيد الحياة إلى « دوار يابوس » وهو الذي كان يحمل اسم - لهريج - حيث تلتقي كافة زمر المجاهدين العاملين في خنشلة - وتكون هذه النقطة أول نقطة تجمع - ازدلاق - قبل الانسحاب للقواعد الخلفية » .

كان من المقرر دعم زمر التنفيذ في الهجوم على خنشلة، بعشرين رجلاً مسلحاً من « دواريابوس » ممن كان بعضهم قد انضم لتنظيم الثوار منذ وقت طويل، وكان يجب أن يتولى قيادة هؤلاء « مسعود معاشي » وهو ثائر قديم ومن رفاق « غرين بلقاسم »، بالإضافة إلى « موسى الرضى » - الذي لم يلتحق ابداً بالثورة - . ولهذا السبب نقص عدد المنفذين من ستين رجلاً الى أربعين رجلاً. ومقابل ذلك، تلقى المجاهدون في لخنشلة بعض الدعم في الأسبوعين الأخيرين اللذين سبقا اندلاع الثورة، وذلك بانضمام بعض المقاتلين إليهم (الزمرة الثانية من كتيبة المدفعية الرابعة). غير أن ذلك حذر الإفرنسيين الذين اتخذوا إجراءات أمن جديدة : مثل إقامة الحواجز من قبل رجال الدرك - الجندرمة - وتفتيش العربات والمركبات بدقة، والتأكد من هوية المسافرين على الطرقات .

أصدرت قيادة الثورة تعليماتها الأخيرة، وطلبت الى « لغرور » الاتصال مع « بن بولعيد » فى الأوراس، للحصول على أسلحة

إضافية، إذ كانت الأسلحة المتوافرة للمهاجرين في خنشلة غير كافية للقيام بهجوم واسع النطاق. وفي يوم الأحد، ٣١ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ كان على « سليم بو بكر » نقل الأسلحة والذخائر المخزونة في منزله، وإخراجها إلى ظاهر المدينة. وتصادف في هذا اليوم حدوث مباراة بكرة القدم بين فريق من « قسنطينة » وفريق محلي من « خنشلة » وكانت السلطات الإفرنسية على حذر، فدعمت جهاز الشرطة في الملعب. غير أن سليم بو بكر، وجد في ذلك فرصة مناسبة لتنفيذ المهمة، والوصول بالأسلحة إلى « النبع الدافىء » وهو المكان المحدد للالتقاء مع المنفذين المجاهدين (على بعد ٧ كيلو مترات من خنشلة) وأمكن تنفيذ هذه المهمة بنجاح، وبعد ذلك، تركزت مراقبة الثوار على ما كان يحدث في المدينة. لقد انتهت المباراة الكبرى بكرة القدم، والتي أثارت في المدينة صخباً كثيراً. وانصرف الناس بعدها إلى المقاهي ـ كعادتهم ـ وكان الوضع في الساعة ٢١٣٠ طبيعياً جداً. لقد سارت الأمور ـ حتى الآن ـ على خير ما يرام. وها هم رجال الشرطة والدرك من الافرنسيين يتجولون كعادتهم، وقد ارتدت المدينة ثياب العيد ـ عيد جميع القديسين ـ . وليس هناك من يشعر بوجود هؤلاء الذين يراقبون بيقظة كل ما يجري في المدينة. ثم غادرت زمرة المراقبين خنشلة متجهة الى ما وراء الحديقة العامة، حيث كان « بن عباس » يحفر الأرض ليدفن فيها أنبوباً معدنياً يحمل لغمًا متفجراً ـ حشوة مستطيلة ـ كان قد أحضره معه لاستخدامه في تدمير الباب المعدني للمحول الكهربائي. ووصلت زمرة المراقبين بعد ذلك مباشرة الى الغابة الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات من المدينة.

وهنا أوقفهم رجل مسلح كان يرتدي ثيابه العسكرية، وصرخ فيهم (خالد) وأجابه رئيس زمرة المراقبة (عقبة). لقد كانت كلمة (خالد - عقبة) تتردد الآن في كل انحاء الجزائر. فتعمل عمل السحر في نفوس المجاهدين وتضمن تعارف بعضهم على بعض.

وصلت زمرة المراقبين إلى مكان الاجتماع، في الوقت المحدد بدقة، وشاركت المنفذين استعداداتهم حيث كان بعضهم على وشك ارتداء الثياب العسكرية، في حين كان آخرون يختبرون أسلحتهم للمرة الأخيرة. وكانوا جميعاً يتيهون فخاراً بما يفعلون.

وبعد ذلك تجمع المنفذون كلهم، ومعهم أسلحتهم ووسائطهم القتالية. ووصل « لغرور » في الساعة ٢٢٤٠ وهو يحمل سلاحه، ويرتدي ثياب الميدان. وانتظر الجميع وصول العشرين - أوراسي - الذين كان يجب التحاقهم، وانطلق المجاهدون للبحث عنهم في الغابة كلها، مستخدمين في بحثهم الشارات الضوئية يطلقونها من مصابيحهم اليدوية، غير أن جهود البحث ضاعت سدى، ولم يظهر أي أثر للأوراسيين. ووقف « لغرور » عندها ليقول لرجاله :

« إخوتي المجاهدين الأعزاء !

ها نحن قد أدركنا يوم الثورة العظيم الذي يجب أن يقود الجزائر إلى الاستقلال، إن علينا القيام بالهجوم على الأهداف كلها، وذلك على الرغم من عدم وصول الأسلحة التي كان من المفروض لها أن تصلنا مع زمرة العشرين رجلاً من دوار يابوس.

وعلى كل واحد منا بذل قصارى جهده لضمان النجاح على أفضل صورة ممكنة. إنني أعرف بأننا سنجابه العدو وأيدينا فارغة عملياً. وليس لدينا إلا الإيمان الذي يعمر قلوبنا. غير أن ما نعتمد عليه في هذه الليلة التاريخية هو إشعال الفتيل المفجر للثورة. وإنني على ثقة تامة بأن الشعب الجزائري بكامله، سيتبع مسيرتنا على هذا الدرب. ويحمل كل فرد منا في شخصه الآن، وفي هذه اللحظة بالذات قسماً كبيراً من المسؤولية عن نجاح الهجوم ضد الأهداف المحددة. وجمع الأسلحة المتوافرة لدى العدو. إنني أثق بكم وبشجاعتكم وتصميمكم. انطلقوا، واضربوا العدو بقوة، ودون أدنى رحمة أو شفقة. وعودوا ظافرين. ذلك لأن الله مع المجاهدين، ومع القضية العادلة. الله أكبر ! ».

ما إن فرغ « لغرور » من إلقاء كلمته المثيرة والصادقة، حتى أصدر أمره الى الزمرة المكلفة بقطع الاتصالات الهاتفية وعزل المدينة بالتوجه الى « خنشلة ». ثم تبعتها الزمرة المكلفة بالصاق بياني جبهة التحرير وجيش التحرير على كل منازل خنشلة. وتتابع انطلاق الزمر إلى أهدافها، ولم تبق إلا زمرة من ثلاثة رجال واجبها حماية قاعدة الانطلاق. ووصلت إلى أسماع أفراد هذه الزمرة في الساعة (١١) من صباح الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر - أصوات الانفجارات الاولى. لقد انطلقت شرارة الثورة. وأثناء ذلك، كان أفراد هذه الزمرة يعملون على نقل ما لديهم من الاعتدة والتجهيزات، حتى اذا ما أزفت الساعة الثانية صباحاً، بدأ المجاهدون المغاوير بالعودة إلى قاعدة تجمعهم، واحداً بعد

الآخر، إلى أن وصل الجميع، وبينهم اثنان أصيبا بجراح غير خطرة. وأثار النجاح الذي حققته زمر التنفيذ موجة من الفرح الغامر الذي شمل الجميع. ولكن « لغرور » تخلف عن اللحاق بنقطة التجمع، وأخذت حماسة المجاهدين بالفتور، فقرروا الانتقال من مركزهم. وفي النهاية، وصل « لغرور » مع الخيوط الأولى للفجر، وابتسامة السعادة تغمر وجهه. كانت فرحة الجميع لا توصف، وفخرهم لاشتراكهم بتفجير الثورة لا يضاهيه فخر ولا ينافسه زهو واعتزاز. وانطلق الجميع بعد ذلك وهم يخترقون غابات الأوراس، للبدء بمرحلة جديدة من التنظيم والعمل.

صادف المجاهدون، أول ما صادفوه في طريقهم، رجلاً يحتطب في الغابة، وهو يغني، واقترب منه الرجال المقاتلون، وبادروه بقوله: (السلام عليكم) وأجابهم (وعليكم السلام). وخاطبه أحد المجاهدين بقوله: (لن يزعجك الإفرنسيون بعد اليوم). وسألهم الحطاب ببساطة: (ولكن من أنتم؟) وجاءته الإجابة: (نحن محررو البلاد). فقال لهم الحطاب مستغرباً: (إنني لا أفهم شيئاً، وماذا تعني كلمة محرري البلاد؟ إنكم جزائريون، وزيادة على ذلك فأنتم تحملون السلاح!) وجاءته مرة أخرى الإجابة: (نحن مجاهدون. نقاتل حتى يصبح بإمكانك العيش حياة أفضل) وعاد الحطاب للتساؤل: (وكيف تكون الحياة الأفضل؟) عند ذلك راح احد المجاهدين يشرح للحطاب الفلاح - ولآلاف الفلاحين من بعد ذلك - الأسباب التي دفعت المجاهدين لحمل السلاح، وأهدافهم من ذلك، وما يطمحون لتحقيقه. وأشرق وجه الفلاح بسعادة غامرة، فدعا المجاهدين

لمشاركته طعامه البسيط.

تلقت الهيبة الاستعمارية لطمة مذهلة لم تكن تتوقعها، سواء في قوة هذه اللطمة أو اتساعها، وما أن أشرقت شمس صبيحة انفجار الثورة، حتى انطلقت السلطات الاستعمارية للانتقام، فاعتقلت مئات وآلاف المسلمين الجزائريين، وقـذفت بهم في ظلمات المعتقلات وغياهب السجون. وكان من بين المعتقلين بعض أقارب وأهل الذين قاموا بالهجوم على «خنشلة» وتم إطلاق سراح بعض المعتقلين بعد تعذيبهم واستجوابهم. في حين بقي الآخرون وراء قضبان المعتقلات. وفرضت الإقامة الاجبارية في معسكرات الاعتقال على عدد كبير من المواطنين. ووقعت نساء بعض المجاهدين في قبضة السلطات الاستعمارية، فقذفت بهن في السجون، حيث تعرضن لسوء المعاملة والتعذيب لمدد طويلة. وقد يكون من المناسب هنا استعراض مسيرة الاغارات في خنشلة، وما تم حدوثه خلال التنفيذ.

١ ـ الإغارة على المحول الكهربائي وشبكة الاتصال الهاتفي:

قام بتنفيذ المهمة «ابراهيم عثماني ـ التيجاني» ومعـه «الأرقط كيلاني». وبدأت العملية عندما قطع إبراهيم عثماني الأسلاك الهاتفية التي تصل خنشلة بكل من عين البيضاء وبطنة، وكانت هناك زمرة تقوم باشغال الدرك ـ الجندرمة ـ وحماية المنفـذين، واستخدمت حشوة مستطيلة بعد ذلك لتدمير الباب المعدني الذي يحمي مدخل «المحول الكهربائي». كما استخدم مقص معدني للتعامل مع القاطع الكهربائي الرئيسي. مما ساعد على قطع التيار الكهربائي عن المدينة كلها، فباتت تسبح في ظلام دامس. وتم بعدئذ وضع الشحنات المتفجرة والقنابل، وأشعل الفتيل البطيء،

وتطاير البناء بكامله في الفضاء. وكان إطفاء النور في المدينة هو شارة بدء التنفيذ بالنسبة لزمر الهجوم الأخرى. وكانت النتيجة تدمير المحول الكهربائي وإلحاق أضرار كبيرة بالمنشآت والتجهيزات.

٢ ـ الإغارة على مركز الدرك ـ الجندرمة ـ كان مركز الدرك قد تلقى إنذاراً من قيادته باحتمال قيام بعض المسلحين بالهجوم على المركز الذي عمل على استنفار عناصره. وهكذا فقد بدأت العملية بتبادل إطلاق النار بين المجاهدين ورجال الدرك الذين أطلقوا كلابهم البوليسية. غير أنه تم تنفيذ المهمة، وانسحب المجاهدون ولما يصب أحد منهم بأذى.

٣ ـ الإغارة على مركز الشرطة ـ البوليس ـ. أفاد «بن عباس» من الظلمة الحالكة، فتسلق الحاجز الشبكي المحيط بالمركز. وأخذت بقية عناصر الإغارة مواقعها المحددة لها داخل المركز، واقتحم رئيس الزمرة «بن عباس» باب مكتب الشرطة، حيث كان يرقد الشرطي المناوب. وصرخ.. بن عباس بالشرطي: قف، وسلم سلاحك. فقال الشرطي: ولكن ما الأمر؟ وماذا يحدث؟ وأجابه: «بن عباس» بقوله: نحن جند جيش التحرير الوطني، نبحث عن السلاح، أين هم بقية رجال المركز؟ وأجاب الشرطي المناوب: إنهم يقومون بأعمال الدورية في المدينة. وأشار الشرطي إلى المجاهدين نحو مكان البنادق التي كانت مرتبطة بعضها ببعض بواسطة سلسلة معدنية غليظة تنتهي بقفل. وبعد أن تم قطع السلسلة تبين أن البواريد هي من الأنواع القديمة والتي لا تصلح للقتال. فقذف بها المجاهدون في ساحة

المركز. وأثناء ذلك كان « بن عباس » يتابع مع الشرطي المناوب، فقال له : إن جيش التحرير الوطني قد بدأ منذ هذه اللحظة بخوض صراع مسلح هدفه تحرير البلاد. وليست العمليات هنا معزولة أو مستقلة عن العمليات الأخرى. فالجزائر كلها تشهد في هذه اللحظة عمليات مماثلة. ثم أصدر « بن عباس » أمره إلى رجاله بوضع الشرطي في زنزانة السجن.

ومضت عشر دقائق قبل أن يظهر رجلان من الشرطة ما أن دخلا المركز حتى قال أحدهما: ماذا يجري ؟ لقد ترددت أصوات إطلاق الرصاص في المدينة التي أصبحت مظلمة بسبب انقطاع التيار، فماذا يحدث ؟ وعندها وجه « بن عباس » ضوء مصباحه اليدوي، فبهر عيون الشرطيين، وقال لهما بلهجته الحازمة: تقدما وارفعا أيديكما عالياً. لا تتحركا أبداً، وسلما سلاحكما !... وأصيب الشرطيان بذهول المباغتة، غير أنهما ترددا لحظة قصيرة في اطاعة الأمر. وعندها قفز « اوغاد » فصرع الأول بضربة من عقب بندقيته، وطعن الثاني بضربة مدية.

لقد كان « صلاح أوغاد » رياضياً هاوياً، مصارعاً، ومحباً لقراءة الروايات الرومانسية، والكتب البوليسية، مغامراً ومندفعاً حتى التهور عندما يكون الأمر متعلقاً بمقاومة الافرنسيين. لقد نشأ يتيماً، واحتمل منذ نعومة أظافره مسؤولية إطعام عائلته وتأمين متطلباتها الحياتية. غير أن ذلك لم يمنعه من متابعة دراسته، فكان يعمل في الليل لتشغيل أجهزة عرض الأفلام في دور الصور المتحركة ـ السينما ـ ويتابع تعلمه في النهار، وكان يقوم بدعوة اخوانه ورفاقه الى السينما في كل مناسبة يتم فيها عرض فيلم ثوري

مثل : (فيفازاباتا) أو (بانكوليبرتا) والتي تمثل وقائعها تلك الحركات الثورية التي عرفتها بلدان أمريكا الجنوبية في القرن التاسع عشر[1]

ألقى الثوار بالشرطيين في الزنزانة، إلى جانب زميلهما الذي سبقهما، ووصل شرطي رابع، فتمت السيطرة عليه بسرعة، وجرد من سلاحه، ليلحق بدوره أيضاً بمن سبقوه الى الزنزانة.

وفي هذه اللحظة، رن جرس الهاتف في مكتب مدير المركز، إذن فالشبكة الداخلية للهاتف لا زالت عاملة ولم تقطع اتصالاتها بعد. ورفع (بن عباس) السماعة، والتقط الصوت الذي حمل له الكلمات التالية : الو ! هنا مدير الشرطة، نحن مطوقون، ونتعرض لهجوم رجال مسلحين، ابذلوا ما تستطيعونه لانقاذنا وأخبر فوراً السيد المفتش ـ الكوميسير ـ بالوضع. وأجابه (بن عباس) بقوله : هنا أيضاً، نحن الذين نمسك بالمبادأة. وسأل متحدث الشرطة : ولكن من أنتم ؟ وأجابه بن عباس : نحن جند جيش التحرير الوطني، جئنا ننتزع حقوقنا بقوة السلاح. واجتاحت (بن عباس) موجة من الغضب، فقذف بالهاتف ودمره. وحمل أفراد الزمرة المسدسات الأربعة التي انتزعوها من رجال الشرطة. وحملوا أحد المجاهدين بسبب إصابته بجرح في

---

(١) كلف صلاح اوغاد بمرافقة بن عباس بعد ذلك للالتحاق بأحد مراكز تدريب المقاتلين الجزائريين التي أقيمت في البلاد العربية. ليعودا بعدها إلى عنابة بمهمة مرافقة زورق كان من المقرر له أن ينقلها إلى الشرق (ومن المحتمل إلى جزيرة آثوس اليونانية). ولكن السلطات الافرنسية استولت على زورق الأسلحة، وصادرت ما يحمله، في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٦. وكان الزورق يحمل عند الاستيلاء عليه في (وهران) ذخائر وأسلحة وأعتدة مرسلة إلى جيش التحرير الوطني الجزائري.

فخذه. وانسحبوا بسرعة من مركز الشرطة، والتحقوا بمركز التجمع .

٤ ـ الإغارة على المجمع المشترك ـ كومون ميكست ـ. كانت الظلمة حالكة السواد عندما قفز (شامي) من فوق بوابة المجمع المشترك، وتبعته زمرة المجاهدين، إلى داخل المناطق السكنية. وتكفل (لغرور) بالفارسين اللذين كانا يحرسان البرج، وأصدر إليهما الأمر عبر الباب بقوله : **اقتربا ! إننا لن نلحق بكما ضرراً أو أذى. ألقيا أسلحتكما من النافذة وسلماها إلينا. إننا مسلمون جزائريون نريد تحرير البلاد من الاستعمار الإفرنسي.** ولكن في هذه اللحظة، ظهر مدير المجمع على الشرفة وأخذ في الصراخ: يا عسس ! يا عسس ! دافعوا عني، إنهم يريدون قتلي. من هم هؤلاء الرجال الذين يقفون في الساحة ؟ ورداً على الصراخ، أخذت مجموعة من المجاهدين في إنشاد نشيد وطني بصوت مرتفع. وتكرر بلا انقطاع : **الجهاد ـ الله أكبر** واختلطت مشاعر الفزع بحمى الجنون لدى المدير عند سماعه ذلك، على ما يظهر، فعاد للصراخ طالباً نجدة الحرسين الفارسين : يا عسس ! يا عسس ! دافعوا عني، إنهم يريدون قتلي وقتل عائلتي ـ ومضى المدير في إطلاق نار مسدس رشاش كان يحمله، على ما يتراءى له من ظلال المجاهدين. وعندما تكرر طلبه ـ بالنجدة ـ أجابه الفارسان : لا نستطيع أن نفعل شيئاً، بعد أن سدت المنافذ علينا ونحن في داخل المحرس. فرد عليهم المدير بقوله ـ وهو يتابع الرمي ـ: يا عسس، ارموهم بالنيران، لا تتركوهم ينفذون ما يريدون. وعندها حاول الفارسان تلقيم سلاحهما وهما داخل

المحرس، وما أن سمع (لغرور) صوت المغلاق في الداخل، حتى تدخل، فأغرقهما بالنيران التي أطلقها عليهما عبر النافذة، وسقط أحدهما مصاباً بجراح خطرة. وكان المجاهدون أثناء ذلك يشعلون النار في المكاتب، وهم يرددون شعارهم دونما توقف: الجهاد ـ الله أكبر ! واستمر تبادل إطلاق النار مع المدير لمدة عشرين دقيقة، أوقفت زمرة الاغارة بعدها الاشتباك، وانسحب أفرادها إلى الغابة المجاورة.

٥ ـ الهجوم على الثكنة العسكرية : تقرب المجاهدون في ظلمة الليل، ووصلوا بدون عناء إلى حارس الثكنة، وقتلوه. واحتل أحد المجاهدين مكانه. ومضت فترة قصيرة بعدها وأخذت الحشوات المتفجرة بالانفجار على امتداد الجدار المحيط بالثكنة العسكرية. وانهمرت القنابل، واشتعلت النار بالاسطبلات نتيجة استخدام القنابل الحارقة، وعندما وصلت النيران إلى الخيول، أخذت هذه في الصهيل المذعور وهي تمزق صمت الليل. وهب الجنود الإفرنسيون من مهاجعهم مذعورين. وتوجه اللواء (كانوا) قائد الثكنة الى المحرس، فوجد الخفير مقتولاً. ومضت فترة الذهول التي أعقبت المباغتة، وأخذ الجند بالتجمع في ساحة الثكنة. وبدأوا باطلاق نيران رشاشاتهم على المجاهدين الذين كانوا يحتمون بجدران أبنية الثكنة، وأعقب ذلك فترة قصيرة من الهدوء والتهدئة. ثم انطلق الجند الافرنسيون في تحركهم وسط اضطراب ظاهر عبرت عنه الأوامر المتناقضة والتعليمات المتضاربة التي كانت تصدر من كل مكان في الثكنة.

وكان المجاهدون يستمعون صراخ أعدائهم : « اشعلوا النور ! النور مطفأ، لقد دمروه ! إدفعوا المدافع الرشاشة والمصفحات نحو

الأمام ! انتبهوا واحذروا، انهم مسلحون ! فليبق كل فرد في مكانه ! » وفي هذه اللحظة، ظهر الملازم الأول « جيراردارنو » قائد فصيلة الصبايحيه - السباهيين - الجزائريين في خنشلة. ولم يكن من عادة « جيرار » النوم في الثكنة، إذ كان يقيم مع فرسانه في بناء مجاور - مقابل - ويظهر أنه أراد الالتحاق بمركز فصيلته، فتوجه إلى باب الثكنة الذي كان يحتله المجاهدون. وعندما وصله، قال : انتبهوا، لا تطلقوا النار، أنا قائد المركز الملازم جيرار، ماذا يحدث هنا حتى تطلقوا النار. ولم يرد عليه أحد. فتقدم حذراً حتى عاجلته رصاصة أطلقها عليه أحد المجاهدين من مسدسه فأرداه قتيلاً على الفور. وانسحب المجاهدون بعد أن نفذوا مهمتهم بنجاح رائع، وبدون أن يصاب أحد منهم بأذى.

ج - لهيب الثورة في أريس[١]

بدأ العمل السياسي والعسكري للثورة في أريس، طوال الفترة من سنة ١٩٥١ وحتى سنة ١٩٥٤. ففي سنة ١٩٥١، وفي أعقاب الاضطرابات التي سببها احتلال مكاتب الانتخابات - الاقتراع - وتدمير صناديق الانتخابات، وقتل   كان في خدمة الادارة الافرنسية. قامت الادارة المشتركة للمجمع في (أريس) بعملية قمع واسعة في (دوار كامل). وتمركزت قوة من الحرس المتحرك

---

(١) RECITS DE FEU (S.N.E.D.) MOHAMED CHAMRI« P.P. 30«36

مدعمة بخمسة وستين رجلاً من الجزائريين (القوم)[1] في مشتى تيجين. وبدأت من هناك عملياتها القمعية. وكان ذلك بـداية الهيجان. فقد كان المواطنون جميعهم يعارضون إقامة هذه القوة بينهم. وانضم عدد كبير من الأفراد إلى قوات المقاومة السرية ـ الماكي ـ وأصبحوا في تعريف السلطة الافرنسية (خارجين على القانون) .

لقد كانت فترة مناسبة لعمل أعضاء التنظيم السري الذين كانوا قد أفلتوا من الاعتقال في كل مدن الجزائر. وأخذوا في العمل في وسط الفلاحين، وشرعوا في تنظيم الخلايا المستقلة. وكان أفراد هذه الخلايا يحملون تطلعات جديـدة تتوافق مـع طبيعتهم الفروسية وأفكارهم الاستقلالية. وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء كانوا من الأميين، إلا أن العناصر الوطنية التي لم يتعبها الجهاد، نجحت في صهرهم وتكوين نظرياتهم وأفكارهم بمفاهيم اجتماعية تملأ عليهم ما كانوا يعانونه من قصور المعرفة، وتستجيب لطموحهم في الاستقلال والحرية .

هكذا ! ومن خلال حب الوطن، ولدت هنا خلايا سرية كثيرة، لا يعرف بعضها بعضاً، وأصبحت هذه الخلايا العاملة بصمت، والملتزمة بقواعد الانضباط الصارم، وهي تغطي صفحة الأوراس بكاملها. وكان الفلاحون يتلقون خلال فترة الإعداد

---

(١) القوم (GOUME) كان الافرنسيون يقصدون بها عرب افريقيا. وكان للكلمة معناها الخاص في الجزائر، حيث كانت وحدة (القوم) وهي الوحدة العسكرية الجزائرية التي تعمل ـ غالباً ـ تحت قيادة قائد افرنسي، بمهمة أساسية هي الاستطلاع وجمع المعلومات وتوجيه القوات الرئيسية (الرائدة).

العسكري ما هو ضروري من توجيهات خلقية وسياسية، إلى جانب الإعداد النفسي، وفقاً لكل قواعد السرية ومبادىء الأمن والحيطة التي أمر بها القرآن الكريم. وبدأ التحول في مواقف هؤلاء الرجال الذين يعيشون حياتهم بعيداً عن المدينة، وهم معزولون في وسط عدائي يتربص بهم، وفوق أرض جدباء مقفرة تقريباً. ولم يكن حدوث هذا التحول ممكناً لولا تلك الجهود الجبارة التي بذلها رجال (المنظمة السرية ـ الشرف العسكري) . فتراجعت بنتيجة ذلك النزاعات العدوانية ـ غير الهادفة ـ . وأخذ الرجال في السيطرة على أنفسهم، والتحكم بانفعالاتهم السلبية .

ولم تمض أكثر من فترة قصيرة حتى توافرت للرجال الثائرين القدرة على العمل بفاعلية وقوة ضد كل قوة مهما كان رصيدها المادي قوياً، ومهما كان نوع التسلح الحديث الذي تمتلكه. ولم يكن ذلك إلا بفضل ما اكتسبه هؤلاء الفلاحون الموصوفون من قبل الاستعماريين (بالخارجين على القانون) من معرفة سياسية جيدة، وتدريب مستمر ومنظم دعم من روحهم المعنوية العالية، وزاد من ثقتهم بأنفسهم. لقد ولـدوا عمالقة من جديد، ولكنهم عمالقة فيهم كل صفات النبل والطيبة، يعملون في السر من أجل تطوير تنظيمهم الجديد، واحترام قواعده وأسسه، والالتزام بمبادئه وأهدافه .

لقد عاد (مصطفى بن بولعيد) إلى الجزائر من جديد في العام ١٩٥٤ ، ومعه (بشير شيحاني) وتم اتخاذ قرار في (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) يقضي بمتابعة التدريب وتطوير الاستعداد. وتم تعيين (عجول) الذي كان يستقر في (وادي

سرحا) للاضطلاع بمسؤولية القيادة العسكرية. فكان عليه توجيه التدريب العسكري، والحصول على الأسلحة والتجهيزات وتخزينها. وأصبح التدريب منتظماً ومستمراً تقريباً. وكان معظم (الخارجين على القانون) في هذه المنطقة هم من الذين هربوا من الجيش الافرنسي، فكانت لديهم معرفة أكثر من سواهم ممن التحقوا حديثاً في صفوف المجاهدين - في مجال التعامل مع الأسلحة. وانصرف (غرين بلقاسم) وآخرون لممارسة أعمالهم السرية، والاضطلاع بأدوارهم بثقة وتفاؤل.

شملت عملية تدريب الثوار (الماكي) كل ما هو ضروري لتأهيلهم من أجل احتمال المصاعب مثل : السير الطويل، والأعمال القتالية، وحتى التدريب على التحكم بالانفعالات والعواطف، وتركز التدريب على منح الرجال الفرصة لاستخدام خيالهم المبدع من أجل اتخاذ القرارات الصحيحة، وإظهار روح الأخوة والاستعداد للتضحية.

وأصبح الرجال بعد ثلاثة أشهر من التدريب تقريباً - وهم على استعداد لتنفيذ أية مهمة قتالية. ونظراً لاقتراب موعد تفجير الثورة (يوم - ي) فقد تم توزيع الرجال على منطقتي عمل، الأولى وتشمل : أشمول، والأحمر خدو، وزيلاتو، وبسكرة. أما الثانية فتشمل : الشليا، ووادي فم الطوب، ومروانا، وبطنه، وباريكا. وانصرف رجال المنطقة الثانية للتجمع على حدود (فم الطوب) حيث الوادي الخصب الذي تنتشر فوقه المستوطنات، وأخذوا في العمل تحت قيادة (غرين بلقاسم ولغرور عباس). أما رجال المنطقة الأولى، فقد تسللوا خفية في الليل إلى (الطيبي كاوين) و(ضهرات ولد موسى) بالقرب من

(الحجاج) وليس بعيداً عن (أريس) حيث المركز الرئيسي للمجمع المشترك في (الأوراس) . واحتل هؤلاء منزل (علي بن شيبا) الذي يضم إحدى عشرة غرفة، انتشر فيها المجاهدون، وحرم عليهم أي اتصال أو التعريف بأنفسهم أو مغادرة المنزل . واستقر الجميع هنا ثلاثة أيام، تلقوا خلالها محاضرات عن قتال الثوار (المغاوير) ونظفوا أسلحتهم، وتفقدوها، وتدربوا على استخدام الألغام والمتفجرات والأجهزة اللاسلكية .

وفي يوم ٣٠ تشرين الأول - اكتوبر - وصل مبعوثان من قبل (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) واتصلا بالزعيمين (مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني) وأبلغاهما آخر التعليمات . لقد أصبحت «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» تثق ثقة تامة بالكفاءة القتالية المتوافرة في وسط الشعب الجزائري، قدر ثقتها بنضجه الثوري - الفكري - ومعرفته بالطريق المؤدي الى الحل الحاسم . فأصدرت أوامرها التي كان ينتظرها رجال الأوراس بصبر نافذ .

إذا ضم تاريخ الجزائر يوماً له أهميته الخاصة، فذلك هو يوم ٣١ تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٥٤ ؛ ذلك لأن هذا اليوم هو الذي تم فيه اتخاذ أخطر القرارات التاريخية - يقيناً - وهي القرارات التي ستزج الشعب الجزائري كله في حرب ضروس لا يستطيع أحد - في ذلك التاريخ - معرفة مدتها أو مدى اتساعها . وفي ذلك اليوم، خرجت الأسلحة والذخائر من مخابئها في الكهوف ومن مدافنها تحت التراب، لتحسد بعضها بعضاً على ما ستقوم به من الأعمال .

وهكذا، وبينما كان بعض الرجال يتسلمون أسلحتهم، والحماسة تهز كيانهم، كان هناك آخرون واجبهم مرافقة ونقل (٦٠) بارودة و (٢٠٠) كيلو غرام من الذخائر بواسطة شاحنة استأجرها لهم (بو شمال) لتصل هذه الإرسالية في المساء إلى منطقة القبائل، ويتسلمها الرجال الشجعان في هذا الاقليم، ممن كانوا يستعدون بدورهم للعمل (من أمثال عميروش). واعتباراً من تلك اللحظة، سيأخذ المجتمعون في (الطيبي كاوين) و(ضهرات ولدموسى) و (فم الطوب) كل ملامح المستقبل وفضائله. ولم يكن من السهل أبداً تجميع مثل هؤلاء الرجال الذين طالما مزقتهم السياسة الاستعمارية، ورجالها من الحكام الإداريين، وطالما فرقت بينهم القيادات والزعامات، لولا الاعتماد على أصالة الجزائر الثورية، وقاعدتها الدينية الصلبة التي توحد ولا تفرق، تجمع ولا تبدد. ولحسن الحظ أن توافر للثورة رجال يمتلكون من الارادة الصلبة ما يزيد على كل الصعاب والعقبات، من أمثال (مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني وعجول وبللا ولغرور عباس وبوستة) ممن يعود لهم دونما ريب فضل توحيد الجهود وتوجيه الطاقات نحو هدف التحرير. وقد كان نجاحهم رائعاً في الأوراس إذ استطاعوا إقناع رجال المنطقة الأشداء بتوجهاتهم وأهدافهم، وحملهم على الاضطلاع بدورهم التاريخي .

قسم الرجال الذين جمعوا عند (الحجاج) وعددهم (٢٧٠) رجلًا إلى مجموعات وزمر يتولى قيادة كل واحدة منها قائد مسؤول. وغالباً ما كان يتم الاضطلاع بدور القيادة طوعاً من قبل

الرجال الثوار[1] وتلقى الجميع التعليمات النهائية، وأصبحوا وهم يعرفون أهدافهم جيداً. وضبطوا ساعاتهم على ساعة الصفر (س). وأخذوا في مغادرة (ضهرات ولدموسى) بعضهم يستخدمون الشاحنات، وبعضهم السيارات الصغيرة، أما الباقون ففضلوا التوجه سيراً على الأقدام. هذا في حين كان رجال (بلقاسم) ينطلقون بصمت وجرأة في اتجاه بطنة ومروانا. وفي الساعة ذاتها كان رجال (عباس لغرور) يبتعدون عن حمام الصالحين في اتجاه (خنشلة). وما أن غربت شمس يوم ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ حتى كان هناك أكثر من ستمائة مقاتل قد انطلقوا للاغارة على الحاميات العسكرية ومراكز الشرطة والأبراج، وكانت كلمات السر والاجابة: (خالد - عقبة) تتردد في كل مكان لتمزق سكون الليل، ولتثير حماسة المقاتلين. وكانت مجموعة (أشمول) قد أخذت في إقامة السدود الأولى من الحجارة على الطرقات، وذلك لقطع كل محاور الاتصالات. هذا فيما كانت الشاحنات والمركبات تتحرك في اتجاه (بسكرة وبطنة)

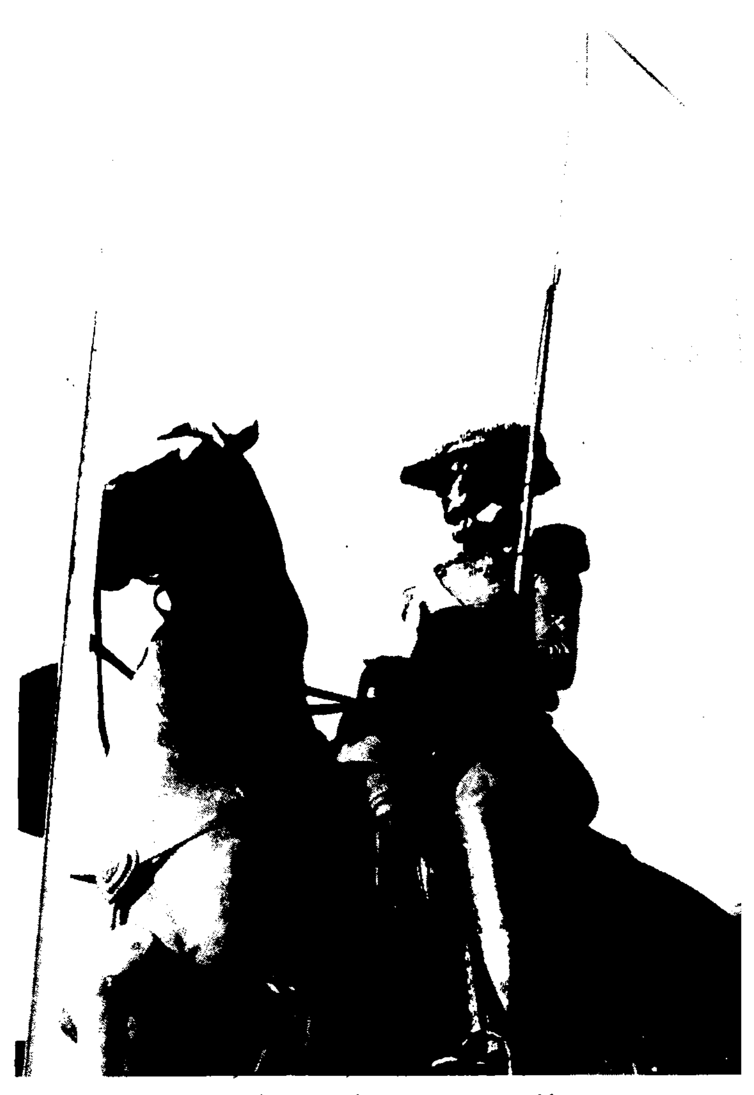
---

(١) كان الرجال الذين تم اختيارهم للقيادة هم: ١ ـ أحمد نواوره لقيادة المغاوير ـ الكوماندو ـ في أريس. ٢ ـ عباس لغرور لقيادة المغاوير في خنشله. ٣ ـ غرين بلقاسم لقيادة المغاوير في بطنه ومروانا. ٤ ـ حسين بن رحيل لقيادة المغاوير في بسكره ٥ ـ طاهر نويشي لقيادة المغاوير في عين القصر. ٦ ـ أما الأشخاص الذين أسندت اليهم مهمة توجيه زمر المغاوير في المراكز المدنية، فكانوا:
ـ رشيد بوشمال لعمليات مدينة بطنة. ـ طيب خراز للعمليات في مدينة بسكرة.
وبقي هناك رجال واجبهم الاضطلاع بمسؤولية متابعة العمليات، وتوسيع مجالاتها وآفاقها في كل اتجاهات مسارح العمليات (انطلاقاً من مبدأ تفشي بقعة الزيت) ومنهم (سي مكي) لتوجيه ثوار تكوت. و(سي محمد ناجي) لتوجيه ثوار فم الطوب و(سي عبد الوهاب عسوفي) لتوجيه ثوار شرق الميزاب. و(سي محمد قنطرة) لتوجيه ثوار باريكا.

لتصل في موعدها المحدد بدقة، ولتقوم بتنفيذ عملياتها على النحو التالي :

في بسكرة : خرج الفدائيون المغاوير من دار الحجاج بقيادة حسين بن رحيل، ووصلوا في اليوم ذاته إلى بسكرة، وفي الساعة التي كان فيها المواطنون المسلمون يغلقون نوافذ شرفات منازلهم، ويحكمون إيصادها بالقضبان الحديدية. أما المدينة الأوروبية فكانت تتألق بأنوار المصابيح فيما كانت الأحياء العربية غارقة في ظلام حالك. وكانت أجراس الكنائس والأديرة تقرع داعية الأوروبيين للصلاة، وانطلق المغاوير لتنفيذ أوامر « اللجنة الثورية للوحدة والعمل » بضرب النقطة الحساسة في الجهاز العصبي للعدو والمتمثل بثكنة (سان جرمان) التي كان يقيم فيها لواء (الرماة السنغاليين). وانطلقت النيران، وأصيب حارس مدخل الثكنة بجراح. كما أصيب المفتش ـ الكوميسير ـ وهو برتبة لواء برصاصة في فخذه. وألقيت قنبلة حارقة على مركز النجارة، فأشعلت فيه النيران، وانسحب رجال جيش التحرير الوطني بسرعة مخلفين وراءهم الفوضى والدمار. وتوقفت أجراس الكنائس عن الرنين .

وفي بطنة : تميز البناء في المدينة بقوته وشدة تحصينه حتى كأنه قلعة منيعة من تلك القلاع التي كانت تقام أيام الرومانيين في وسط تجمعات السكان الوطنيين ـ وكان هذا البناء الضخم يضم مجموعة من الثكنات العسكرية التي أطلقوا عليها اسم « المعسكر »، والتي كانت تحميها جدران شاهقة الارتفاع. ووضع المجاهدون في اعتبارهم أهمية الهدف من الناحيتين الاستراتيجية و النفسية، فقرر قادة المجموعات إرسال الكتلة الرئيسية من القوة



رمز الاستعمار . دمرته الثورة واقتلعته من قاعدته

الضاربة بعد تقسيمها إلى أربع مجموعات تقوم بالإغارة على الأهداف العسكرية في وقت واحد، ولكن بصورة مستقلة؛ كل عن المجموعات الباقية. وكان المجاهدون يرتدون جميعاً الألبسة العسكرية، ويحملون أسلحتهم الآلية (الاوتوماتيكية) من المسدسات الرشاشة (ستاتي) من نماذج أميركية الصنع أو إنكليزية أو ألمانية. وكانت مجموعتان من هذه القوة قد وصلتا من قبل (الحجاج)، في حين جاءت المجموعتان الباقيتان من (فم الطوب). وكان الهدوء المطلق يخيم على المدينة في ساعة بدء الهجوم (الساعة ـ س). ولم تصل المجموعة الأولى إلا في الساعة الثانية صباحاً. (وقد تأخرت مجموعة ـ الحاج ـ عن موعدها بسبب اعتذار رئيسها عن تنفيذ المهمة في اللحظة الأخيرة، فتم تكليف علي بن أخضر طاولي ـ على الفور ـ بقيادة المجموعة) وعملت هذه المجموعة فور وصولها على وضع حارسين ـ خفيرين ـ في (ود زمالا) ثم اخترقت المدينة العسكرية، ومرت من أمام ثكنة الفرسان الجزائريين الصبايحية (السباهين). وهي الثكنة التي كانت هدف المجموعة الثانية ثم وصلت المجموعة إلى هدفها ـ وهو الثكنة التالية ـ التي كان يقيم فيها (الرماة). وكان من المفروض أن يقوم أحد الحرس الرماة من الجزائريين بمساعدة الثوار، وفتح باب الثكنة لهم عندما يتبادلون معه كلمة السر والإجابة (خالد ـ عقبة). ولكن نظراً لتأخر المجموعة في الوصول إلى الهدف، فقد ظن الحارس بأن موعد الهجوم قد تم تأجيله، وجاء تبديل الحرس، فجاء حارس جديد للبوابة. ولم يبق أمام مجموعة الاقتحام الا استخدام المبادأة، واقتحام الثكنة عنوة، وتم تنفيذ الإغارة بسرعة مذهلة، فأصيب الحارس،

وحاولت المجموعة التوغل الى داخل الثكنة غير أنها عجزت عن ذلك، فاكتفت بما حققته من الدمار والذعر، وانسحبت عبر الطريق المحدد لها. وكان لا بد لها من التعرض لثكنة الفرسان الصبايحية (السباهيين) نظراً لاضطرارها من المرور من أمامها، فهاجمتها بعنف، ثم انسحبت بعد ذلك في اتجاه جبل (تبغيراسين) حيث وصلته، ولما يصب أحد من مجاهديها بأذى. وكان المنفذون في هذه المجموعة كلهم من (دوار كامل). وكانوا جميعاً أيضاً ممن اتبعوا دورة عسكرية وتلقوا إعداداً نفسياً خلال فترة طويلة.

وصلت بعد ذلك المجموعة الثانية بقيادة (محمد بن ناجي) قادمة من (فم الطوب). وكان وصولها في موعد متأخر أيضاً، ولم يبق لها ما تفعله بعد أن علمت بأن المجموعة الأولى، قد هاجمت - بالنيابة عنها - ثكنة الفرسان الصبايحية. فانسحبت بعد أن أطلقت بعض الصليات النارية على أبواب الثكنة وجدرانها.

ووصلت المجموعة الثالثة في الوقت ذاته، بقيادة (ابراهيم بوستة) فأغارت على مخزن الذخيرة، وتبادلت إطلاق النار مع رجال الحرس والحامية، ثم انسحبت في اتجاه مجنبات التل، والتحقت بنقطة الازدلاف (التجمع) في المنتجع المحدد للالتقاء من قبل.

وقامت المجموعة الرابعة بقيادة (بلقاسم) باقتحام ثكنة الحرس المتحرك، وكانت هذه المجموعة تضم ثلاثين مجاهداً. ودارت معركة قاسية استمرت ساعتين، انسحبت بعدها المجموعة نحو (جبل عطيل) فوصلته مع شروق الشمس، وقد حملت على كواهل أفرادها أكاليل الغار.

وفي خنشلة، جمع (عباس لغرور) رجاله الثلاثين في (حمام الصالحين) ثم قام بالهجوم (على نحو ما سبق ذكره) .

وفي تكوت :

قام (جغروري) بقيادة مجموعة المجاهدين بمهاجمة مركز الدرك الذي كان أفراده قد تلقوا إنذاراً مسبقاً واستعدوا للمجابهة. وقامت المجموعة بتدمير الجسر، وأتبعت ذلك بنصب كمين في (تيجان أمين).

وفي باريكا :

دمر المجاهدون خطوط المواصلات، كما دمروا أيضاً مركز الاتصالات الهاتفية التي تصل (باريكا) بمدينة (سطيف) .

وفي أريس، كان يجب أن يقوم أربعون رجلاً مسلحاً في الساعة صفر (الساعة - س). وقام (مصطفى بن بولعيد) باعطاء تعليماته شخصياً للمنفذين. وكان يجب أن يتم الالتقاء عند برج المجمع المشترك كومون ميكست - . ولكن لم يحضر في الموعد المحدد سوى (أحمد نواوره). وهكذا خان (٣٩) رجلاً القسم الذي أقسموه أمام (الحجاج). وترك ذلك جرحاً عميقاً في قلب (بن بولعيد) . أما في تيجان أمين : فكانت كل الأعمال التي تم تنفيذها في الليل هي بمثابة الإعلان عن بدء الحرب ضد النظام الاستعماري، غير أن العملية التي تم تنفيذها في صبيحة يوم إعلان الثورة (يوم الاثنين) كانت بداية لنوع من الأعمال القتالية الخاصة (قتال العصابات)، وقد نفذت هذه العملية باعتراض عربة لتفتيشها عند مضيق (تيجان أمين). وكان في العربة

رجلان إفرنسيان يرافقهما دليل معروف بولائه للافرنسيين. وقد رفض هؤلاء الاذعان لأوامر رجال الكمين من المجاهدين. وكان لا بد من تفتيش العربة تنفيذاً لتعليمات القيادة الصادرة عشية الثورة والتي اعتبرت منطقة الأوراس بكاملها من المناطق المحررة. وعندما رفض ركاب العربة الخضوع للتفتيش، حاولوا استخدام أسلحتهم، جرى تبادل إطلاق النار، وسقط الإفرنسيان ودليلهما قتلى على الفور.

د - فجر يوم الثورة المسلحة[1]

كانت ليلة رطبة ومظلمة، غير أن ظلمتها كانت أشد قسوة على المستعمرين، لأنها توافقت مع احتفالات النصارى بعيد (جميع القديسين)[2] ولم يكن المستعمرون، وهم غارقون في ظلمة تلك الليلة يعرفون يقيناً، أو يراودهم الشك، بأن ذكرى الليلة الحزينة ستبقى ابداً مرتبطة بأسوأ ما في تاريخهم. ذلك لانها تسجيل لانهيار اسطورة من أضخم الأساطير الاستعمارية.

كانت ليلة رطبة ومظلمة، وهناك، هبت على جبال الاوراس نسمة منعشة، صفقت لها أشجار الغابات الكثيفة. ووسط تلك الظلمة، كانت الأشباح تتحرك دونما ضجيج، وتتسلق المرتفعات

---

(١) كاتب هذه الفقرة هو (جلول بوقفة) في كتاب (قصص من النار - افرنسي) إصدار سنيد - المجاهد - الجزائر - ١٩٧٧ ص ٣٧ - ٤٢. واعتمد الكاتب في كتابته على استجواب المجاهدين الذين اشتركوا في (الحدث التاريخي).

(٢) عيد جميع القديسين (TOUSSAINT) وهو عيد يحتفل به المسيحيون، ويصادف اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر -.

بخطوات سريعة وثابتة، إنها أشباح سكان الجبال (أو الجبليون) الذين اعتادوا على السير الطويل فوق الصخور، وفي الغياض الشائكة. لقد قدموا من كل مكان، من المدن والقرى، من الأوراس ومن مناطق بعيدة عنها. كانت تلك المنطقة هي منطقة قبيلة (توبيس) الشهيرة ببأسها، والمنتشرة على حدود : اشمول وحجاج واريس. أما (البوسليمانيون) المشهورون بإبائهم وشحمهم فكانوا على حدود - أريس - (وقد عرف عنهم حبهم الشديد لتربية الصقور). ويبقى (الغسيريون العنيدون) هم حراس أبواب الجنوب، وسيكون من نصيبهم الفخر لقيامهم بنصب أول كمين في مضيق - نفق - تيجان أمين - على بعد ثمانية عشر كيلو متراً الى الجنوب، وذلك في صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ .

وكانت هناك أيضاً قبائل أبناء العمومة من (الأشراف والسراهناس) والذين يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، كما يتحدثون بلهجة البداوة - الشوايا - باتقان غريب. وقد عرف أبناء هذه القبائل بشدة بأسهم وصعوبة مراسهم. غير أن عائلاتهم ستتعرض للانتقام الوحشي وأعمال الانتقام من قبل الافرنسيين، وذلك كرد فعل منهم على الاشتباك الأول مع قوات الثورة. وستكون هذه العائلات أول من يعاني الاضطهاد، وأول من يتعرض للتعذيب بسبب قصة الكمين التي تتلخص بالتالي :

قام ثمانون مجاهداً بقيادة بشير ورطان - الملقب بسيدي هاني - بنصب كمين لقافلة فرنسية تضم كتيبتين، واشتبكوا مع القوة الإفرنسية لمدة (٢٤) ساعة، سقط خلالها (٣٠٠) جندي بين

قتيل وجريح ـ بحسب ما ذكره سائقو سيارات الأجرة، التاكسي، التي استخدمها الإفرنسيون لنقل قتلاهم وجرحاهم ـ ومقابل ذلك سقط من المجاهدين (٧) شهداء و (٢٥) جريحاً. وعلى اثر هذه المعركة أرسلت قيادة العدو، برقية، أبرزت فيها الأسلوب الذي ستعمل على تطويره للتضليل والخداع، فذكرت بأن القوات الإفرنسية لم تتكبد من الخسائر إلا بعض القتلى وبعض الجرحى فقط .

تجدر الإشارة بعد ذلك إلى أن القبائل البعيدة من (النمامشة والعامريين) لم تكن آخر من وصلت في الموعد المحدد إلى جبال الأوراس. وكان رجال هذه القبائل قد انطلقوا، ومعهم آخرون، من ضهرة (ولدموسى) ليصلوا الأوراس، وليجدوا فيها إخواناً لهم قد حشدوا (٣٥٠) مجاهداً من المقاتلين الأشداء. وكان (مصطفى بن بولعيد) هو أول من وافى المكان، الذي ضم المجاهدين من مختلف المستويات الاجتماعية، ومن كل المستويات الثقافية، ومن جميع العناصر الوطنية، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على فشل الجهود الاستعمارية التي طالما جهدت لخلق الانقسام بين المسلمين، من عرب وبربر، وبين أبناء المدن والقبائل، كل ذلك بهدف تكوين مراكز قوى متصارعة تسمح لفرنسا باختيار نخبة منهم وتدريبهم لمحاربة إخوانهم في الدين والوطن. فكان هذا التجمع أول انتصار للثورة. وها هم الآن (٣٥٠) رجلاً، كلهم رجل واحد، لا تفاوت بينهم ولا تنافر. إنهم على وشك البدء في إطلاق شرارة ثورتهم المسلحة، ولم يبق بينهم وبين الشروع في التنفيذ أكثر من ساعات قليلة. إنهم يمثلون ولادة الثورة التي

ستمتد لتطهر أعماق الشعب الجزائري، وتصهره، لتوجهه نحو الهدف الواحد، وهو هدف الحصول على حقوق لم يعرفها الجزائريون أبداً منذ اجتاحت جحافل الغزوالإفرنسي بلادهم.

هنا، في الأوراس أيضاً، التقت « المجموعات الخاصة » وقد ضمت رجالاً ملؤهم الثقة، حملوا السلاح الذي استخرجوه من مخابئه الكثيرة والتي لم يعرف أحد مكامنها سواهم، وكان النجاح حليفهم عندما جاءوا بها من جنوب الأوراس، ومن (ودصوف) ومن (ليبيا). ودفنوها في انتظار اللحظة الحاسمة. وكان (مصطفى بو ستة) هو أول من عمل لتنسيق التعاون بين مختلف القوى في القطاع (تكوت) : وكان يعيش في عالم الخفاء منذ سنة ١٩٥٢. ولم تنجح عمليات التفتيش في العثور عليه، أو اقتفاء أثره، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها قوة (الحرس المتحرك) والتي ضمت ثلاثة آلاف مقاتل، جاءت بناء على طلب (حاكم أريس) للبحث عما أطلق عليه اسم (المجرمين) و (الخارجين على القانون).

وقامت هذه القوة الإفرنسية بتمشيط المنطقة مرات عديدة، غير أن (مصطفى بو ستة) ومعه (الخارجون على القانون). استطاعوا البقاء بعيداً وبصورة مستمرة عن قبضة القوات الاستعمارية. وها هم الآن يستعدون لمرحلة جديدة من العمل الثوري، ومعهم (حسين بن رحيل) الذي بدأ العمل السري - متخفياً - منذ سنة ١٩٤٣، وكذلك (صادق سبشوب) الذي اكتسب شهرة اسطورية باعتباره قناصاً من مهرة الرماة. و (مكي عيسى) الذي طالما تعرض للمطاردة، والذي اشتهر منذ قتل أحد

رجال الدرك برصاصة واحدة في جبهته، عندما كان هذا يطارده في وضح النهار. وكذلك أيضاً (مسعود مختار) و (غربين بلقاسم) الذي ستتحدث عنه البرقية المرسلة من قبل السلطة الحاكمة، بما يلي : « لقد قتل و احد من كبار قادة المتمردين »، غير أن البرقية تجاهلت العدد الكبير الذين صرعهم غريـن بلقاسم - من جند العدو - قبل أن ينال شرف إحدى الحسنيين. ثم هناك (أحمد الجدعا) الذي اشترك في الثورة منذ بدايتها، ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره[1] وتبقى الظاهرة المثيرة في تجمع هؤلاء المجاهدين، انصهار كافة الفوارق الناجمة عن المنشأ، لقد وقفوا صفاً واحداً - كالبنيان المرصوص - فبات من العسير التمييز بين الجبلي وابن المدينة، أو من عرف بؤس الحياة وفقرها، ومن عاش رغدها وبحبوحتها. وها هو الجبلي (ابن - اوولد الغولة) بهامته الضخمة ولونه البرونزي وملامحه القاسية التي تنطق بها قسمات وجهه، وتعبر عنها شفتاه وهما تقذفان الكلمات بطريقته البدائية (الموصوفة بالوحشية) فيدخل بها الرعب إلى قلوب أعدائه. لقد كان يمتلك قوة جبارة طالما كانت له عوناً لانقاد عدد كبير من رفاقه الجرحى أثناء اشتباكاتهم الدموية الرهيبة، غير أن جهله (أميته) كانت تضعه باستمرار في مؤخرة إخوانه، وكان شأنه في ذلك شأن الكثيرين من رفاق طفولته الذين ما عرفوا في الحياة سوى حراثة الأرض الصخرية وزراعة الأرض المجدبة تقريباً، والتي كانت الشيء الوحيد الذي تركه لهم الاستعمار الاستيطاني. وقد خضع هؤلاء البؤساء المحرومون، الى حين، لأساليب الدعاية الاستعمارية الإفرنسية، حتى

---

(١) وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أفراد مجموعته، وانصرف [illegible] الثورة للعمل في الإشراف على مزرعة بناحية بطنة.

أنقذتهم منها جهود دعاة الثورة (الحركيين) . وما لبثوا أن استردوا الشعور بعظمة أمتهم ، فأقبلوا تباعاً ـ الواحد بعد الأخر ـ وانضموا لقوات جيش التحرير الوطني الذي جسد لهم أهداف وجودهم .

واذا كان (ولد الغوله) يمثل هذه الفئة، فقد كان (جيلاني حداد) يمثل الفئة المقابلة، فقد نشأ جيلاني في المدينة، وعاش بيسر وبحبوحة ، وتميز منذ أيامه الأولى في الحياة بذكائه الحاد، فكان من السهل عليه أن يؤمن بضرورة استخدام العنف الثوري، وبحاجة لخوض الصراع المسلح. وكان يعيش في وسط جماهير المدينة فأمكن له الاتصال بمنظمات الثوار (الماكي). وكان هذا الاتصال خطراً في حد ذاته، لا سيما وأن جيلاني كان معروفاً بأفكاره الثورية ونزعاته التحررية. وسيمضي عام على موقفه مع رفاقه في الأوراس، عشية الثورة، قبل أن يودعه هؤلاء الرفاق الوداع الأخير بعد أن حملوه من ميدان المعركة، وصعدوا به لمواراته إلى جانب رفيق له سبقه الى قبر مهجور. لقد سقط (جيلاني) وهو يحمل سلاحه يرد به العدوان الإفرنسي عند مدخل القرية التي لم يتجاوز حدودها ولم يغادرها أبداً منذ بدأت حرب التحرير، وكثيراً ما كان أخوانه المجاهدون يتحدثون عنه بعد ذلك وهم يستعيدون ذكريات الحضارة الإفرنسية، التي لم يعرفوا منها إلا أعمال الإبادة ضد الوطنيين المسلمين الذين كانت تصفهم فرنسا (بالمتوحشين).

يبقى هناك مجال للحديث عن (بو عيسى) أو (رجل المستنقع) الذي لم يكن قد عرف طائرة في حياته ـ قبل الثورة ـ شأنه في ذلك شأن معظم مواطنيه، ولكن ذلك لم يمنعه من توجيه

نيرانه في معركة (تكوت) ليسقط طائرة فرنسية فوق أرض المعركة. وكان من المرغوب فيه التعرض لذكر كل أولئك الابطال الذين اشتركوا في معركة(ضهر ولدموسى) الشهيرة والتي وقعت في اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٥٤. وهو اليوم التاريخي الذي انطلقت فيه مجموعات كثيرة، تضم الواحدة منها أحد عشر رجلاً، لتنتشر في وهاد جبال الأوراس وشعابه، وهي تتعارف بعضها على بعض بكلمتي السر والتعارف السحريتين (سيدي خالد) و (سيدي عقبة). ففي تلك الساعة (س - صفر) قام الثوار بتدمير (جسر تكوت) وتم بذلك عزل رجال الدرك الذين كانوا يستقرون في القرية. وهناك، على بعد مائة كيلو متر من تكوت، اجتاح الثوار (فم الطوب) حيث كانت أرتال المجاهدين قد غادرتها على عجل وهي متجهة الى (بطنة). وعلى مسافة أكثر بعداً، كان الثوار يهاجمون مراكز الجيش والدرك والشرطة في (خنشلة).

وفي اليوم التالي، كانت أخبار الفرحة التي طال انتظارها وقد ملأت كل بيت جزائري، في الشمال كما في الجنوب، وفي الشرق كما في الغرب. لقد انبعث ضياء الأمل من قلب الظلمة الحالكة. وإذا كانت طلقات النيران قد ألهبت القرى والمدن في السهل والجبل، فإن أصداءها القوية قد ترددت عالية في جبال القبائل والأوراس. بل وفي كل مكان، فكانت زغاريد نساء القبائل (يويو) هي أصداء زغاريد أخواتهن من نساء الأوراس، ومعهن جميعاً كانت نسوة المدن وصحارى الجنوب يرددن (يويو) الفرحة.

لقد ارتبطت الأسماء السابقة كلها بالعملية التي اشتهرت باسم (عملية تاغيت) أو (كمين تيجان أمين) والتي كانت أول عملية من نوعها سقط فيها: الدليل معونيش، والمدرس الافرنسي مونروت). واستشهد بعد ذلك كل أبطالها، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى المجاهد (طغروري المبارك) وهو رجل كما يقال عنه (لا ماضي له قبل الثورة، وأن كل قصة ماضيه قد بدأت في هذه العملية). . .

. . حيث تقدم مع جماعته التي ضمت أحد عشر رجلاً لنصب كمين (تيجان أمين) في المضيق الذي يفصل شمال أريس عن الجنوب، والذي تغطيه من الجنوب سلسلة من الجبال المكسوة بأشجار النخيل. وكان هدف العملية، وفقاً للتعليمات التي أصدرها رئيسهم وصديقهم ـ مصطفى بن بو العيد ـ هو منع رجال الدرك ـ الجندرمة ـ من التحرك، وعزلهم، وتدمير روحهم المعنوية، وإرغامهم على البقاء في مراكزهم وثكناتهم لا يبرحونها. وتم نصب الكمين، ولم تقترب أية مركبة من موقع الكمين حتى الساعة الثامنة صباحاً، عندما وصل باص (بسكرة ـ أريس) وفي داخله الدليل ـ القائد ـ معونيش، عميل الافرنسيين، والى جانبه المدرس مونروت ومدرس آخر، بالإضافة الى الركاب من المواطنين الجزائريين المسلمين. وظن الدليل أن العملية تتعلق بجماعة (خارجين على القانون) كما كانت تسميهم السلطة الاستعمارية، وأراد (معونيش) على ما يظهر إضافة خدمة جديدة لسجله في الاخلاص لسادته، فاشهر مسدسه، محاولاً إطلاق النار على المجاهد الثائر الذي أوقف الحافلة (الباص) والذي كان خلف

النافذة تماماً حيث كان يجلس الدليل والمدرس الإفرنسي. ورأى اثنان من أفراد الكمين هذه الحركة وهما في موقعهما المرتفع بين الصخور، فأطلقا عليه النار وأردياه قتيلا، وأصابت رصاصة المدرس (مونروت) فقتلته. كما أصيبت زوجة المدرس برصاصة ثالثة لم تقتلها.

وصعد (طغروري المبارك) إلى الحافلة، فأوضح لركابها مهمة الكمين، وشرح لهم ما كان يحدث خلال تلك اللحظة من أعمال ثوروية، لا في المنطقة وحدها وإنما في كل أنحاء الجزائر. واستأنفت الحافلة رحلتها، وأوصلت الجريحة الى مستشفى أريس في الساعة الحادية عشرة، ولم تلبث أن أقبلت طائرة عمودية - هيليكوبتر - فنقلت الجريحة الإفرنسية من مستشفى بسكرة إلى مستشفى بطنة. ولقد أثار وصول هذه الطائرة العمودية كثيراً من الصخب والضجيج، حيث حاول رجال الدرك وأعوان السلطة الإفرنسية تصنيع قصة تراجيدية للبرهان على العظمة الافرنسية والقوة الإفرنسية، ولم يعرف رجال الدرك في حينه أن هؤلاء الذين لم تقع أنظارهم قبل ذلك اليوم على (طائرة عمودية) سيعتادون عما قريب على التعامل مع كل أنواع الطائرات، وتركها طعمة للنيران.

كان الافرنسيون جميعهم من مدنيين وعسكريين مسلحون تسليحاً حديثاً وجيداً، وبصورة خاصة منهم المدرسون الذين يختلطون أكثر من سواهم بالمواطنين المسلمين.

قامت القوات الإفرنسية بحملة مشتركة ضمت كل صنوف

الأسلحة، وذلك بعد كمين (تيجان أمين) بثلاثة أيام، واقتحمت هذه القوات ـ أريس ـ وتوجهت بعدها الى موقع الكمين الذي تعرض للقصف طوال ساعات عديدة بنيران المدفعية والطيران. وانتقلت قوات الحملة بعدها الى تكوت، وأصلحت الجسر الذي يقع عند مدخل القرية. وفي اليوم التالي (٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر) طوقت القرية والأكواخ المنتشرة حولها، وبدأت بعملية اعتقال المواطنين واستجوابهم وتهديدهم بالحرق. كما أخذت بقتل أهالي الثوار وأفراد عائلاتهم وذلك بعد الاحتفاظ بهم كرهن لمدة خمسة عشر يوماً على أمل أن يقوم الثوار خلالها بتسليم رقابهم للجلادين. ورفع المحققون الى رؤسائهم خلال الأيام الثلاثة الأولى قوائم ـ لوائح ـ تتضمن أسماء (الخارجين على القانون) .

وكانت السلطات الاستعمارية وهي تمارس أعمال الإرهاب، تعتقد أنها قادرة بهذه الأساليب على عزل الثوار وحرمانهم من كل دعم. فأقدمت على تعذيب المعتقلين وقتل بعضهم، معتقدة أن ما تم تنفيذه من أعمال ثورية لا يتجاوز نطاق (الهيجان المحلي) مما يجعلها قادرة على إخماد الهيجان الجماهيري بسهولة، بنفس الأساليب التي سبق استخدامها في سنة ١٩٤٥ لإخماد هيجان سطيف، وجيرالدا، وأعلن الضباط الافرنسيون أنهم تلقوا تعليمات تقضي بإعادة تنفيذ فصول القصة البائسة، كما أعلن هؤلاء الضباط عن استعدادهم لاعادة تنفيذ مثل تلك العملية، غير أن ذلك لم يزد المجاهدين الجزائريين، إلا تصميماً .

ولم يزد الشعب الجزائري الا عناداً لاحتضان الثورة، حديثة العهد بالولادة، ودعمها ورعايتها. وأصبح جيش التحرير الوطني

الجزائري هو الملاذ الوحيد من أجل حمل السلاح، وخوض الصراع ضد الظلم والظالمين، إذ أنه على الرغم من كل التهديدات والممارسات الارهابية، فقد استطاع المواطنون الجزائريون إحاطة القوات الإفرنسية، في كل مكان، بمناخ من التهديد وفقدان الأمن، وقام الأنصار الجزائريون (المسلبون) الشجعان، بتأمين الاتصال بين المواطنين وبين جيش التحرير الوطني في كل مكان من البلاد .

ونظراً لمنع الرجال في (تكوت) من مغادرة المدينة ـ تحت طائلة التهديد بالقتل ـ إلا بعهد الحصول على تصريح ـ إجازة ـ من السلطات الرسمية، فقد وقع على النساء واجب تأمين هذه الاتصالات. واضطلعت النسوة المجاهدات بكل ما كان يطلب إليهن تنفيذه من الأعمال الشاقة والخطيرة. فكانت جهودهن وأعمالهن ذات أهمية لا تقل عن زوجة البطل (بلقيس ولد الغولة) التي لم تكن زغاريدها (اليويو) وزغاريد أخوتها، في المعركة إلا لهيباً يرتفع على صخب القتال وضجيج الأسلحة، مما كان يثير حماسة المجاهدين ويدخل الرعب في قلوب جند الأعداء.

وقد كان صوت (العمة الغولة) دونما مبالغة أشد وقعاً وأعمق تأثيراً من كل وصف. وكانت العمة الغولة ضخمة الجثة، قوية البنية، سوداء اللون تقريباً، ذات شجاعة لا تطالها مقاييس اختبارات الشجاعة، إنها لم تتذمر في يوم من الأيام، ولم ينل منها التعب أبداً وهي تجوب الجبال باستمرار، لتنقل الأخبار إلى المجاهدين. ولتؤمن لهم الاتصالات الضرورية، طوال سنوات الحرب. فنسجت بذلك ـ للتاريخ ـ أسطورة ملحمة طويلة جداً

بحيث يصعب الإلمام بها أو الإحاطة بفصولها. وكانت مدرسة للصبر والجلد واحتمال كره القتال والاستعداد الدائم للتضحية والفداء.

بمثل هذه النماذج الأسطورية اقتحم الثوار التاريخيون أبواب التاريخ.

هـ ـ اندلاع الثورة في متيجة (متوجة)[1]

اختار رئيس (قسمة) في (برج المنيل) أربعة شبان من بين مجموعة كان أفرادها يتحرقون شوقاً ويتقدون حماسة لخوض الصراع المسلح ضد الاستعمار الإفرنسي الجاثم على صدر بلادهم. ولم يكن الحافز لاختيار هؤلاء الأربعة من دون سواهم ـ في شهر تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٤ ـ إلا نتيجة طبيعية لما عرف عنهم من نشاط ومن فاعلية علاوة على صغر سنهم. لقد كانوا يشكلون قسماً من خلية تابعة لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل). وكان واجبهم آنذاك العمل مع العشرات من إخوانهم المجاهدين لنشر الدعاية وجمع المعلومات عن المجمعات المشتركة ـ كومون ميكست ـ وكان هذا الواجب من أصعب الأعمال في تلك الفترة، نظراً لما كانت تتعرض له الجزائر وشعبها المجاهد من ضغوط

---

(١) كاتب هذه الفقرة هو (احمد جنان) في (قصص من النار ـ أفرنسي) إصدار سنيد ـ الجزائر. ص ٤٣ ـ ٤٨. والكاتب احمد جنان من قدامى المجاهدين في (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) وقد عمل في منطقة (برج المنيل) ولم يكن عمره أكثر من تسعة عشر عاماً يوم اشترك مع إخوانه المجاهدين في الهجوم على الثكنات العسكرية في (بليدا) و(بوفاريك).

استعمارية قاسية. وفي بداية الامر، فُصل الأربعة عن رفاقهم المجاهدين في الخلايا القديمة، واتخذت قيادتهم كل ما هو ضروري من الإجراءات لإبعاد الشبهات والشكوك عنهم، ولحماية الأعمال التي كان يتم تنفيذها استعداداً لتفجير الثورة. واستمر التعامل معهم بأقصى درجات الحذر، من قبل كل إخوانهم، ذلك لأنهم كانوا حتى تلك الفترة من العناصر الضعيفة اذا ما تمت مقارنتهم بقدامى الثائرين. وكان هناك خوف من ضعفهم تجاه الانقسامات التي كان يصطنعها النظام الاستعماري في قلب الحركة الوطنية.

ولهذا، بقي اتصال هؤلاء الأربعة، خلال مرحلة الإعداد، مقتصراً ومحدداً بواحد من رجال التنظيم السري، كانت السلطات الاستعمارية تبحث عنه منذ أحداث سنة ١٩٤٧. وكان واجبه تدريب الشباب الأربعة على استخدام الأسلحة وأساليب القتال. غير أن هذه المرحلة لم تستمر أكثر من أشهر قليلة، إذ كان قادة التنظيم قد تسلحوا بالخبرة التي استخلصوها من تجربتهم الحية في سنة ١٩٥١ والتي عايشوها في قلب التنظيم السري. وكانت هذه الخبرة المستخلصة تفرض على رجال التنظيم السري (التحرك بسرعة حتى لا تتوافر للعدو مهلة زمنية كافية تساعده على اكتشاف التنظيم ومعرفة أهدافه). ومن أجل ذلك، احتفظ القادة بموعد بدء الثورة سراً، ولم يعلنوه حتى اللحظة الأخيرة، ولم يكن اختيار موعد بدء الثورة اقتراحاً عشوائياً، أو اتفاقياً مصادفاً، وإنما كان عملاً مدروساً، فتحديد هذا الموعد ليصادف الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - حيث (عيد جميع القديسين) هو مناسبة اعتاد الرجال الاستعماريون على الاحتفال بها.

ففي الساعة الواحدة من منتصف الليل، وهو توقيت القيام بالعمل ـ ينصرف رجال الإدارة الاستعمارية الى احتفالاتهم المعتادة، وتكون الإدارة في حالة عطالة تقريباً، الأمر الذي يضمن للثوار فترة زمنية كافية لتوجيه ضربتهم، والانسحاب بعد ذلك، إلى قواعدهم المأمونة دونما تهديد مباشر بالمطاردة. وهكذا تم اتخاذ كافة التدابير التي تؤمن انطلاقة الثورة لتكون عامة وشاملة منذ اللحظة الأولى .

لقد تم اختيار الشبان الأربعة، للاشتراك في عمليات تفجير الثورة في إقليم (بوفاريك) في حين تم اختيار سواهم للاشتراك في تفجير الثورة في إقليم (بليدا)، وعرف هؤلاء باسم (خلية عقيل عمولا). وتم إعلامهم بمهمتهم يوم ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ أثناء قيامهم بالتدريب على المسير الطويل. وتولى إبلاغهم ذلك رئيس قسم التنظيم شبه العسكري في (قسمة) والمشهور بلقب (السيد الشارب) ـ نسبة إلى شاربه الضخم الذي كان يغطي وجهه ـ وهو من (عين سكونا ـ مجمع برج المنيل). وقد استمر في أداء دوره الثوري حتى سقوطه في ميدان الشرف سنة ١٩٥٩ .

المهم في الأمر، هو أن السيد الشارب أعطى أوامره إلى الشبان الأربعة بالتوجه إلى الجزائر للاتصال (بالسيد الطاهر) الذي كان من واجبه مرافقتهم لمقابلة مسؤول كبير (لم يكن غير العقيد عمران بحسب ما أصبح معروفاً بعد ذلك). وكان من المفروض أن يتم هذا اللقاء في الجزائر العاصمة. وقام (السيد الطاهر) بتحديد موعد اللقاء ومكانه : (في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي ـ في ساحة بور سعيد). وما أن

وصل الشباب الأربعة في الموعد المحدد الى المكان المعين، حتى تبين لهم بأن موعد المقابلة ومكانها هو مجرد تدبير احترازي، إذ قابلهم هناك مرة أخرى (السيد الطاهر) ورافقهم إلى مقهى يقع في (بيرجبة) من مرتفعات (حي القصبة). وكان هذا المكان هو مركز الالتقاء بكافة المجاهدين القادمين من القبائل للإسهام في العمل المشترك الذي كان يتقرر في اجتماعات الجزائر.

قد يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند ظاهرة - تدابير الحيطه المشددة - التي رافقت اتساع أفق العمل وتطوره. إذ أن هذه الظاهرة، لم تكن في الواقع إلا نتيجة من نتائج انقسام الحزب وتمزقه، وقد حرص القادة على الإفادة من هذا الانقسام، واستخدامه رداء خارجياً، وستاراً لحماية الحركة السرية. ولفهم هذا الانقسام وانعكاساته لا بد مرة أخرى من العودة إلى المراحل الأولى لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) التي ضمت الأجنحة المتطرفة والحيادية كرد على صراع المركزيين والمصاليين في (حزب انتصار الحرية والديموقراطية). وقد ضمت أجنحة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) معظم الثوار السريين - الماكي - والذين كانوا يميلون إلى استخدام وسائط الصراع المسلح، وكانوا في الوقت ذاته يمثلون كل أقاليم الجزائر - من قسنطينة حتى منطقة القبائل، ومن أقصى الغرب إلى وهران وأقصى الشرق - . وقد جاء الانقسام في قلب الحزب ليترك شعوراً لدى المتطرفين والحياديين بأنهم في النهاية هم (ضحايا هذا الانقسام) وكان انتقالهم لممارسة العمل الثوري في سنة ١٩٤٧، نتيجة قناعتهم بأنهم وهم يحملون السلاح، سيعيشون معارك حرب التحرير حتى

نهايتها. غير أن قادتهم تخلوا عنهم، وخلفوهم وراءهم، وقطعوا الجسور التي تصلهم بهم، ولم يبق أمامهم إلا البحث عن الوسائل المناسبة للتخلص منهم. وكان من نتيجة ذلك أن وقع عدد كبير منهم في شباك أجهزة الشرطة (البوليس) الإفرنسية.

ومن هنا يمكن اعتبار كل تدابير الحيطة وإجراءات الأمن، هي عمل شرعي وضروري، لا سيما وأن الحاجة كانت تفرض تطوير النشاط السري ليشمل كل الصفحة الجغرافية للقطر الجزائري. وكان ذلك بدقة هو سبب استدعاء الشباب المنظم في الخلايا الى الجزائر التي لم تكن أبداً المحطة النهائية في رحلة تفجير الثورة. ففي الساعة (١٦٠٠) من اليوم ذاته (٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر) صعد عشرون مجاهداً تقريباً، إلى شاحنة كبيرة كانت تنتظرهم في الممر الواقع بين (الاوبرا) و (نادي الضباط) لتنقلهم إلى (الصومعة في ولد عايش). حيث كان على هؤلاء المجاهدين الانتظار لمدة ساعة أخرى في مزرعة يملكها (ابن طوطه)، وهي المزرعة التي عاد المجاهدون للاقامة فيها فترة (٢٤) ساعة. حيث أُعلموا بموعد انفجار الثورة. وكانت الظاهرة المثيرة هي أن هؤلاء العشرين الذين نقلتهم الشاحنة. لم يكونوا أبداً على معرفة بامر وجود مجموعات أخرى كانت تقيم معهم في المزرعة ذاتها، أو تنتشر في المزارع القريبة الأخرى. كما أنهم لم يعرفوا أن هناك منازل أخرى تجاور المنزل الذي أقاموا فيه. وكل ما أمكن لهم معرفته هو أنهم نقلوا الى كوخ يستخدم لحفظ علف الحيوانات، وطلب اليهم عدم مغادرته طوال اليوم، إلا لقضاء حاجاتهم الضرورية جداً. ولكنهم عرفوا بعد ذلك. أن الذين

حضروا قد تجاوز عددهم الخمسين رجلاً، جاءوا كلهم من القبائل.

كان الهدف هو الهجوم على ثكنة (بليدا) وثكنة (بوفاريك).

وكان على المجاهدين المحليين، وعددهم قليل نسبياً في تلك الفترة، الإغارة على مكتبة (علي بابا) وتدميرها. ولقد كان لكل عملية من هذه العمليات قصتها، غير أنه من المناسب هنا انتقاء قصة واحدة منها، هي قصة الإغارة على ثكنة (بوفاريك). ولقد كان الهجوم على هذه الثكنة (وعلى ثكنة بليدا أيضاً) نتيجة أبحاث طويلة، ودراسات مستفيضة، وإعداد دقيق. وكان الهجوم على ثكنة (بوفاريك) يعتمد في أساسه على الرقيب (سعيد بن طوبال - وهو شقيق الأخضر بن طوبال عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية). أما الهجوم على ثكنة (بليدا) فكان يعتمد على (سعيد قودي) من مواليد برج المنيل، وكلاهما كانا يخدمان تحت العلم الإفرنسي، وكان الهدف من الهجوم على الثكنات هو الاستيلاء على ما يمكن الحصول عليه من الأسلحة، والتي كان الثوار أحوج ما يكونون اليها. وكان (الأخ سعيد) في هذه الليلة هو رئيس الحرس، وعليه تقع مسؤولية تبديل الخفراء طوال مدة (٢٤) ساعة. وهذا يعني أن مفتاح الدخول الى الثكنة كان في قبضته. وعلى هذا، غادرت مجموعة (الكوخ) مقرها في الساعة (٠٠ ٢٢) تقريباً. وسارت لمدة ساعة تقريباً قبل أن تلتقي بمجموعة أخرى في كرم من كروم العنب، غير بعيد عن الثكنة. وهنا فقط ظهر العقيد (عمران) في وسط المجاهدين وهو يحمل مسدساً ألمانياً. فيما كان مرافقاه يحملان مسدسات رشاشة انكليزية (طراز ستين) وكانت تلك هي كل الأسلحة التي توافرت لإفراد المجموعة .

مكثت مجموعة الفدائيين المجاهدين في كرم العنب فترة قصيرة من الوقت، حتى إذا ما حان موعد التنفيذ، تحركت نحو هدفها، ووصلت إلى جسر كان يقع على مقربة من الثكنة، وتوقفت عنده، وانتشر الأفراد على أطراف الجسر، وتحته، بينما توجه اثنان من الفدائيين إلى الثكنة ودخلاها برفقة رئيس الحرس (الرقيب بن طوبال). وتوجه الثلاثة إلى مستودع الأسلحة، وشرعوا بقطع السلاسل الحديدية الغليظة التي كانت تقيد الأسلحة وتثبتها. وعندما انطلقت المجموعة لاقتحام الثكنة، تنبه أحد رجال الحرس، وأعطى شارة الإنذار. وفشلت العملية في تحقيق هدفها (وبالطريقة ذاتها أصاب الفشل عملية الإغارة على ثكنة بليدا) .

لقد كان بالمستطاع تحقيق النجاح في عمليتي الهجوم على الثكنتين، لو أمكن اتخاذ المزيد من تدابير الحيطة عند التنفيذ، وكان النجاح في تنفيذهما ـ لو تحقق ـ سيدعم من قدرة الثوار، خلال المرحلة الأولى من عمر الثورة. وإذا كان هدف العمليات الأخرى التي نفذت في كل أنحاء البلاد هو الإعلان عن بدء الصراع المسلح، فقد كان هدف العمليتين هو الحصول على الأسلحة التي يتطلبها هذا الصراع. وكان من نتيجة هذا الفشل أن تعرض ثوار القبائل وثوار الجروة للمعاناة المريرة من نقص الأسلحة في أيديهم، منذ الأيام الأولى لانطلاقة الثورة. وليس بالإمكان القول أن فشل العمليتين قد غير من مسار انتشار الثورة وتطورها وفقاً لما كان يرغبه قادة الثورة ورجالها. وبات لزاماً على قادة الثورة توسيع أفق ثورتهم بضم المناطق وتنظيمها على مهل، وبصورة بطيئة، دواراً بعد دوار، وقرية بعد قرية. وقد أفاد الثوار

السريون - الماكي - من مجموعة الظروف، لضم المجاهدين الى صفوفهم بصورة انتقائية، وتنظيمهم، حتى امتد تنظيم جبهة التحرير الوطني وجيشها ليغطي كل تراب الوطن. وعلى كل حال، فإن (الجروة) لم تتأخر كثيراً عن اللحاق بركب الثورة، على الرغم من هذا الفشل، وأمكن لها الاضطلاع بدورها، حتى إذا ما جاء مؤتمر الصومام (في ٢٠ آب - أغسطس - ١٩٥٦) كانت (الجروة) قد نجحت في تصحيح الأوضاع، ووضع الأمور في نصابها الصحيح .

أما بالنسبة للمجموعة التي أغارت على ثكنة (بوفاريك) فقد أصبح لزاماً عليها بعد فشلها في تنفيذ مهمتها، السير طوال الليل للابتعاد عن مسرح العملية. وكان السير شاقاً عبر الحقول وفي الأراضي الوعرة، كما كان أفراد المجموعة يجهلون الطريق المؤدي الى نقطةالإزدلاف (الاجتماع). وهكذا فإنهم لم يصلوا إلى (الصومعة) حتى شروق الفجر، ومن هناك، استقل أفراد المجموعة مركبة نقلتهم الى (برج المنيل). وتعرض أفراد المجموعة في بعض مراحل الطريق لخطر الوقوع في قبضة الدرك الذين أقاموا الحواجز على الطرق للتأكد من هوية المسافرين، وإلقاءالقبض على (الخارجين على القانون) وقبل الوصول الى (برج المنيل) بما يعادل ساعتين من المسير، نزل أفراد المجموعة من مركبتهم، وتوجهوا سيراً على الأقدام نحو منزل (العم أحمد) الذي كان يشرف على تدريبهم خلال مرحلة ما قبل الثورة. وقد عمل (العم أحمد) على تكليف أحد رجاله (واسمه لونس عمروني - وهو يعيش حياة الثورة منذ سنة ١٩٤٧) بمرافقة رجال

المجموعة، والسير بهم فوراً وبدون إعطائهم أية فترة للراحة، حتى الوصول معهم إلى (قروشة الأربعاء) حيث الغابة الكثيفة التي أظلت الثوار، وهناك، التقت المجموعات كلها، لتبدأ مرحلة جديدة من العمل الثوروي.

و ـ الولاية الأولى في معركة التحرير[1]

بدأت الاستعدادات العسكرية للثورة منذ أوائل ربيع سنة ١٩٥٤ حيث كان القائد (مصطفى بن بولعيد) يقوم بالاتصالات مع أعضاء المنظمة الثورية في بقية أنحاء الجزائر، يعاونه في جهوده (بشير شيحاني) ،في حين كان الحاج الأخضر ورشيد بو شمال) يعملان على تجنيد الشبان المناضلين الذين عرفوا بماضيهم المشرف. فكان يتم قبول هؤلاء المناضلين وتنظيمهم في خلايا عسكرية، بعد وضعهم تحت امتحان دقيق للتأكد من تصميمهم على الجهاد، وصلابة إيمانهم، وقوة إرادتهم. وكان من مهمة (الحاج الأخضر وبو شمال) نشر الوعي الثوري في أوساط الشعب، واختبار مدى استعداد الرأي العام لقبول الثورة، وتنمية الاتجاه الثوري الذي أخذ في النمو والانتشار بين جماهير الشعب على أثر قيام الصراع المسلح في تونس والمغرب. وقد استقبلت مناطق الجزائر كلها استقبالاً حماسياً مشجعاً زيارات

---

(١) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية. العدد ٤٢ تاريخ ١٨/٥/١٩٥٩. وكاتب البحث هو الحاج الأخضر، والذي عرف في الثورة باسم (الكومندان الحاج الأخضر). وقد تم الاعتماد في البحث على وثائق مركز البحوث في الجزائر ـ وعلى معرفته الشخصية بمسيرة الأحداث.

(الحاج الأخضر وبو شمال) مما كان يزيد من عزيمتهما ويشد من أزرهما ويدفعهما لتطوير العمل الثوري . ويذكر الحاج الأخضر ذلك فيقول : « كنا نتحدث مع المجاهدين عن مستقبل الجزائر، ونتعرض للظروف المتوافرة والمناسبة لقيام الثورة، ولم نكن نصرح لهم بدهياً بأننا نستعد للقيام بالثورة، ولكننا نشير إشارات بعيدة، فيها من الغموض أكثر مما فيها من الوضوح. فنجد الناس يتساءلون عن سبب عدم إندلاع نار الثورة، ويطالبوننا بالعمل المباشر. وكنا نقدم التقارير الى الأخ - الشهيد - مصطفى بن بو العيد - نؤكد فيها استعداد الشعب للجهاد، وتأييده للعمل الثوري » .

توافر بنتيجة الجهود المبذولة عدد من خيرة المقاتلين الأشداء، فتم عقد اجتماع للقادة في شهر تموز - يوليو - ١٩٥٤ . تقرر فيه توزيع الخلايا العسكرية على جهات معينة من منطقة الاوراس. وطلب الى كل مجاهد انضم الى جيش التحرير الوطني تقديم مبلغ (١٦) ألف فرنك من أجل شراء بندقية له. وكانت القيادة قد بدأت بجمع السلاح، غير أنه لم يتم توزيعه على المقاتلين، وإنما كان يتم نقله إلى جبال الأوراس حيث الغابات الكثيفة تؤمن غطاء جيداً لممارسة التدريب العسكري، واتقان الرمي واستخدام السلاح. وبينما كانت عمليات نقل الأسلحة مستمرة بفترات متباعدة الى الأوراس، كانت المناورات العسكرية وأعمال التدريب مستمرة أيضاً، حتى جاءت ليلة الثورة. وكان المسؤولون في التنظيم قد أعلموا بالموعد قبل أيام قليلة، وعندما تم إعلام المجاهدين بالوقت المحدد للبدء بالأعمال القتالية، اجتاحتهم

الحماسة، وأظهروا استعداداً كبيراً لتقديـم التضحيات بالغة ما بلغت. كما أظهروا إدراكاً عميقاً لأهمية اللحظات الحاسمة التي كانوا يعيشونها .

فكانوا يلتزمون بالتعليمات والأوامر وينفذونها بسرية تامة. لقد وهبوا أنفسهم لقضية وطنية مقدسة، ووضعوا ثقتهم في قادتهم المؤمنين الصادقين، وتركوا لهم مهمة الإعداد السري للثورة، وقبلوا تنفيذ كل ما يطلب إليهم تنفيذه بدون مناقشة، ومن غير أن يسألوا عن الهدف أو القصد منه، أو عن موعد العمل المباشر، أو غير ذلك من الأسئلة التي قد تحرج المسؤولين أو تعرض الثورةلخطر مدمر ـ والثورة لا زالت في بداياتها الأولى.

انطلقت الخلايا الثورية الأولى نحو أهدافها المحددة، وهي مسلحة بالإيمان العميق ومحاطة بجو من التنظيم الدقيق والسرية المطلقة والتصميم العنيد. وكان المجاهدون قد وزعوا على الجهات المختلفة، فاتجه ثمانون منهم الى (فم الطوب)، وذهب خمسون إلى ناحية (أريس)، واستقر سبعون آخرون في (غابة كامل).

وقام خمسة وثلاثون بالهجوم على (بطنة)، وكان النجاح حليفاً لهذا الهجوم، حيث قتل للعدو سبعة جنود وأصيب ثلاثة آخرون بجروح. ونجح هجوم (فم الطوب) أيضاً حيث احتلتها قوات الثورة لمدة ستة أيام وغنمت منها تسعة بنادق حربية. وفي الوقت ذاته، وهوجمت أريس وخنشلة وتازولت وقلس وغيرها من جهات أوراس الشاسعة. وواجهت قيادة الثورة منذ البداية مجموعة من الصعوبات الضخمة .

فقد بدأت الثورة مع بداية فصل الشتاء. ولم تكن الظروف المناخية تسمح للمجاهدين بتوسيع آفاق الثورة، غير أن هذه الظروف المناخية كانت بدورها عاملاً مساعداً على نجاح الثورة، ذلك لأنها أعاقت تحرك الأرتال الضخمة للقوات الإفرنسية، وأعطت لقادة الثورة متسعاً كافياً من الوقت للإعداد والتنظيم.

لقد كان الشك يراود جماهير الشعب في بداية الأمر بقدرة الثورة على الصمود والاستمرار، فإذا ما استطاعت الثورة المحافظة على وجودها لأكثر من ثلاثة أشهر، وتمكنت في الوقت ذاته من تطوير صراعها ضد الإفرنسيين طوال هذه المدة، فعندئذ ستقتنع جماهير الشعب بالقوة الحقيقية للثورة، وستتوافر لديها القناعة والثقة بقدرتها على النجاح. وعلى هذا الأساس، فقد كانت الظروف الطبيعية والمناخية أفضل عامل مساعد على إحباط كل المحاولات والمشاريع التي وضعتها السلطات الاستعمارية لتدمير الثورة، والقضاء عليها وهي لا زالت غضة العود في مهدها.

أصبحت الثورة مع بداية العام ١٩٥٥، راسخة الجذور في قلب الشعب، وتعاظم عدد المجاهدين في صفوف الثورة. وأقبل المواطنون على التطوع بوفرة هائلة في (جيش التحرير الوطني) ودعمه بالأسلحة والذخائر والأموال والتبرع له بكل ما يمتلكونه. وكان من نتيجة ذلك أن أصدر القائد (مصطفى بن بولعيد) أوامره إلى المجاهدين بتوسيع مناطق العمليات، والاتصال بالأخوة المجاهدين في الولايتين الثانية والثالثة. وتم تأمين الإتصال فعلاً، وتنسيق التعاون، بين (ولايات الجهاد الثلاث). وانتشر جند الثورة في جميع أنحاء الولاية الأولى، وأرسل ثلاثون مجاهداً الى

منطقة الجنوب الصحراوي فوصلوا الى (وادي سوف) واستقبلتهم جماهير الشعب بحماسة رائعة ، وانطلق الدعاة في الأسواق العامة ومناطق التجمع ، يحرضون الناس ويدعونهم للجهاد في سبيل الله . وحدثت اشتباكات مع القوات الإفرنسية عند حدود الصحراء ، تكبد فيها العدو خسائر فادحة تزيد على خمسماية جندي . واستطاعت قيادة الثورة في الشمال تنظيم خلايا ثورية قوية ومتينة (في مدن : العيون وباريكا ومدوكال) وساها من المدن الواقعة على أطراف الولاية ، وأصبح الإتصال بالولايات المجاورة منتظماً ومستمراً ، كما تم الوصول شرقاً الى الحدود التونسية .

بذلك ، ومع بداية العام ١٩٥٥ ، بلغت الولاية حدودها الحالية التي تتبع شمالاً خط السكة الحديدية القادمة من سوق أهراس الى سطيف ، وتنزل غرباً نحو (برج بو عريريج ـ المسيلة) المتقاطعة مع طريق (بو سعادة) وتوازي شرقاً الحدود التونسية ، وتمتد جنوباً الى أطراف الصحراء الكبرى . وقد أصبحت هذه المنطقة تحمل اسم (الولاية الأولى) منذ أن تم استخدام أسماء الولايات بدلاً من المناطق ، في أثر مؤتمر الصومام (في ٢٠ آب ـ أغسطس ـ ١٩٥٦) ، وقسمت الولاية الأولى إلى ست مناطق رئيسية . من بينها منطقة كبرى محررة تحريراً تاماً هي المنطقة الثانية الواقعة الى الغرب من (جبل شيليا) والتي تمتد فيها غابة كامل (كمبل) على مساحة مربعة طول ضلعها ثمانون كيلو متراً . وهذه المنطقة محرمة على القوات الإفرنسية التي لم تكن قادرة على الاقتراب منها إلا بعمليات ضخمة ، وبقوات كبيرة يزيد عدد أفرادها على عشرين أو ثلاثين ألف جندي . (الأمر الذي دفع القيادة الإفرنسية لتنظيم

حملة مرة في كل سنة لتمشيط هذه المنطقة). وقد بقيت المنطقة باستمرار قاعدة صلبة للثورة، تنتشر فيها القوات العسكرية للثورة، ويلجأ إليها أعداد المدنيين الكبيرة ليعيشوا فيها ضمن إطار ظروف صعبة بسبب الهجمات المستمرة للطائرات الإفرنسية على أماكنهم، وبسبب فقر المنطقة في الموارد الاقتصادية، وإن كانوا قد نجحوا في حراثة الأرض ـ بمساعدة جند جيش التحرير وزراعتها ببعض الحبوب والخضار.

لقد هرب هؤلاء المدنيون من جحيم القمع الوحشي للإفرنسيين والتجأوا إلى قواعد الثورة بالرغم من كل المصاعب التي كانت تعانيها حياة هذه القواعد. وكانت فرحتهم لا توصف وهم يعيشون حياة النظام التي صنعها لهم جند جيش التحرير في تلك المناطق البائسة. فقد عمل جيش التحرير على بناء المنازل لإيواء اللاجئين، ونظم لهم مدارس الأطفال، وأمن لهم تنظيماً صحياً يضمن العلاج للجميع. وفي بقية المناطق الأخرى التي تتمركز فيها القوات العسكرية الإفرنسية (وخاصة في منطقة بطنة) نظم الثوار أعمالهم للقيام بهجمات مستمرة بلغ معدلها الوسطي خمسة عشر هجوماً في الشهر، مع تنفيذ هذه الهجمات. بمجموعات صغرى من الأفراد واجبهم الاشتباك مع قوات العدو بالنيران ـ مناوشة ـ ووضعها دائماً تحت شعور التهديد بالخطر، وحرمانها من الراحة والأمن. وشجعت هذه الأعمال الناجحة قوات الثورة، فتعاظم حجم أفواج الفدائيين، وتزايد عدد زمر التدمير، التي استطاعت تنفيذ عمليات رائعة بتسللها إلى قلب المدن والمراكز الإفرنسية، وتدميرها لموارد العدو الاقتصادية، وإعدامها للخونة وعملاء

السلطة الإفرنسية وقادة الاستعماريين .

ولم تمض فترة طويلة حتى بات الشعب كله وهو منظم في خلايا وأفواج تنظيماً سياسياً وعسكرياً، يتوافق مع متطلبات جبهة التحرير الوطني، ويستجيب لتنظيم جيش التحرير الوطني. وأصبح هناك مجالس للشعب في كل دشرة (أو دسكرة) وفي كل قرية ومدينة. وأظهرت جماهير الشعب حماسة لا نظير للتطوع في الجيش، غير أن النقص في الأسلحة أعاق عملية تطويع كل الراغبين في حمل السلاح. لقد نضج الشعب على لهيب الحرب، وأصبح أكثر استعداداً لاحتمال أعظم التضحيات، ورافق ذلك تعاظم في مستوى الوعي الثوري، وبلغ هذا الوعي، من العمق والقوة، ما جعله قادرا على مجابهة التحديات مهما عظمت، وتجاوز الصعوبات مهما اشتدت. وكان دليل ذلك هو فشل كل وسائل الضغط والارهاب في إضعاف مقاومة الشعب الجزائري، وكذلك فشل محاولات فصل جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني عن الشعب.

لقد استخدمت أجهزة الاستعمار الافرنسي وسائل كثيرة، وطبقت أساليب متنوعة، تلتقي كلها عند هدف واحد هو إبادة الشعب الجزائري بطرائق منهجية. وكان في جملة ما طبقته للوصول الى هذا الهدف، حشد الشعب في معسكرات اعتقال اطلق عليها اسم (مراكز التجمع). ويمكن تقسيم هذه المراكز الى قسمين رئيسيين، قسم قريب من الطرق العامة والأراضي المنبسطة (السهلية). وهذا القسم هو الذي كان يتم عرضه على رجال الصحافة والمحققين والباحثين من الأجانب وغيرهم، ولذلك بذل

الجيش الإفرنسي عناية خاصة بنزلاء هذا القسم من المراكز، فأمن للنزلاء المساكن المقبولة، وحداً أدنى من متطلبات الحياة، ليتظاهر بأنه لا يرمي من إقامة هذه المراكز إلى إبادة الشعب الجزائري. أما القسم الآخر، فيشمل المراكز البعيدة، وهي تشكل الأكثرية المطلقة لهذه المراكز، وتمثل الحياة فيها أشد أنواع البؤس، وأقسى صنوف الشقاء، مما يصعب وصفه أو الاحاطة به. ومثال ذلك، أن السلطات الاستعمارية كانت تحشر في المركز خمس عشرة أو ست عشرة عائلة كبيرة في غرفة واحدة، هي عبارة عن كوخ، لا يضمن لساكنيه ونزلائه أي وقاية ضد البرد والمطر. وانتهى الأمر بمعظم هؤلاء إلى الإصابة بمختلف الأمراض المستعصية، علاوة على ما كان يعانيه المعتقلون من الجوع. والتعذيب، وانتهاك الأعراض، وكل أنواع الضغوط المادية والمعنوية، التي سلطها عليهم جند الجيش الإفرنسي. ولم تتوقف السلطات الاستعمارية عند هذا الحد، بل تجاوزته الى تعميم عمليات (تعقيم) الشباب من ذكور وإناث، لمنع الشعب الجزائري من التكاثر والتناسل، كوسيلة في جملة وسائل إبادة الشعب الجزائري.

لم تضعف مقاومة الشعب الجزائري بالرغم من كل هذا العذاب المسلط على رقابهم، فأخذ المواطنون في حض الجيش على المزيد من المقاومة، وتحريضه على الصبر والثبات. وكانت النسوة في مراكز التجمع يرفضن التحدث إلى نساء (القوم). ولا يقبلن زيارتهن أو الذهاب معهن لجلب الماء. كما كان الأطفال ينشدون الأناشيد الوطنية، ويغنون الأغاني الحماسية، على الرغم من الأمراض التي كانت تنخر في أجسامهم الغضة الطرية. وكان

هؤلاء الأطفال ـ البؤساء الجياع ـ يقلدون في ألعابهم مجاهدي جيش التحرير، فينظمون الكتائب والسرايا، ويسخرون من الجنود الإفرنسيين ويتوعدونهم بالموت على أيدي جنود جيش التحرير الوطني.

كان من نتيجة هذه المعاملة الإفرنسية، أن أخذ المواطنون في البحث، من داخل هذه المراكز، عن كل وسيلة للفرار نحو الجبال، وكانوا يفضلون أن يهيموا على وجوههم بلا مأوى، وبدون طعام، على أن يبقوا في مراكز التجمع، معرضين للموت البطيء، ولكل أنواع العذاب والذل والهوان مما كان يسلط عليهم جند الاستعمار. ولم يقف جيش التحرير مكتوف الأيدي أمام خطة الاستعمار لإبادة الشعب الجزائري. فكونت الولاية الأولى على سبيل المثال: تنظيماً صحياً لتأمين علاج أفراد الشعب يشرف عليه ثلاثة أطباء. كونوا بدورهم جهازاً ضم عدداً كبيراً من الممرضين والممرضات. وكان جيش التحرير يلتقط الفارين من هذه المراكز، ويبعث بهم الى المناطق المحررة حيث يجدون فيها ما يحتاجونه من العناية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وفي الوقت ذاته، كانت مجالس الشعب في القرى والمدن توزع المساعدات على المحتاجين، وضحايا القمع الاستعماري. واذا كانت خطة الجيش الإفرنسي هي إبادة الشعب الجزائري، فقد جاءت خطة جبهة التحرير لتعمل على صيانة الشعب وحمايته وتنظيم حياته الاجتماعية، وإذكاء روح الصمود والمقاومة في صفوفه. وأصبحت السلطة الحقيقية في الجزائر كلها وهي محكمة في قبضة جبهة التحرير، حتى أن عدداً كبيراً من المعمرين

(الكولون) كانوا يـدفعون للجبهـة الاشتراكـات والتبرعـات، ويقدمون المواد التموينية للجيش. وبصورة عامة، فإن الشعب الجزائري، قد عاش تجربة الجهاد التي كونته تكويناً جديـداً، فأصبح مؤمناً بمصيره الحر وبمستقبله المشرق.

ز ـ الثورة في ولاية وهران[1]

ولاية وهران، أو الولاية الخامسة، وهي تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالاً، الى أقصى جنوب الجزائر، وتمتد من حـدود المغرب الأقصى الى الحدود الادارية لعمالة الجزائر شرقاً. وهي تمثـل ثلث مساحـة القطر الجـزائري. وتشمـل ثمـاني منـاطق عسكرية. وقد نظمها المجاهد الشهيد (محمد العربي بن مهيدي) بمعاونة (بوصوف) وبعض المجاهدين الآخرين الذين استشهد بعضهم وسجن بعضهم الآخر. وكانت الولايات حينذاك تدعى (بالمناطق). ولم يبدأ العمل في منطقة وهران، منذ أول تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٥٤ . إذ استطاع العدو، مع بداية الثورة، تدمير الفرق الصغيرة والخلايا التي كانت منظمة حينذاك. ومضت فترة بعد ذلك من إعادة تنظيم الخلايا، والاستعداد السري، وتجنيد الشباب ممن عرف عنهم الصدق في وطنيتهم والاخلاص لمبادئهم، وبماضيهم المشرف في الصراع ضد الاستعمار، وبعملهم الدؤوب في نشر الوعي الوطني والثوروي في وسط جماهير الشعب. وقد أظهرت جماهير (وهران) في هذه الفترة حماسة رائعة للقيام

---

(١) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية ١/٥/١٩٥٩.

بالعمل العظيم الذي سيبقى خالداً في تاريخ الثورة الجزائرية، وهو العمل المعروف باسم (معركة جبل عمور).

* * *

وقعت (معركة جبل عمور) يوم ٢ تشرين الأول - أكتوبر - ١٩٥٦. وشارك فيها خمسمائة جندي من جيش التحرير الوطني، في حين كانت القوات الإفرنسية تضم آلاف المقاتلين. وقد استمرت المعركة اسبوعاً كاملاً، وكانت نتيجتها قتل ١٣٧٥ جندياً افرنسياً، من بينهم ٩٢ ضابطاً، دفنوا في (تاهرت) وإحراق ٨٢ سيارة (ج. م. س) وجيب. وحصل الثوار على أسلحة وفيرة وبكميات هائلة، حتى كان كل جندي من جنود جيش التحرير يحمل معه أربعاً أو خمساً من البنادق. كما أسقطت عدة طائرات حربية فرنسية. ولم يخسر المجاهدون في المعركة سوى أربعين شهيداً. وذلك لأن المجاهدين أفادوا من عنصر المباغتة، بقدر ما أفادوا أيضاً من الموقع الطبيعي لميدان القتال، حيث الجبال المنيعة والأراضي الوعرة.

* * *

لقد بدأت قصة هذه المعركة عندما مرت كتيبة من كتائب جيش التحرير بقرية بدوية، وعلمت من سكانها أن قوات فرنسية ضخمة كانت تسير نحو القرية، فانسحبت الكتيبة نحو الجبل القريب من القرية. ووصلت القوات الإفرنسية، وعاثت فساداً في القرية المحرومة من كل وسائل الدفاع. وارتكبت فيها أنواع الفظائع والمنكرات والمحرمات، ونكلت بالمواطنين، فقررت الكتيبة

الانتقام للضحايا البريئة. وأقامت كميناً للقوة الإفرنسية في الطريق وأبادتها إبادة تامة، بحيث لم ينج منها إلا ضابط برتبة صغيرة، فر بسيارته لينقل الى قيادته مصير القوة وما تعرضت له من الدمار الكامل.

وأثناء ذلك، قامت كتيبة جيش التحرير الوطني بجمع الأسلحة والغنائم، والتحقت بثلاث كتائب أخرى من قوات جيش التحرير، ولم يتمكن الإفرنسيون من القيام برد فعل مباشر في اليوم ذاته، فانتظروا حتى اليوم التالي، حيث دفعوا بقافلة تضم مائة وخمس مركبات عسكرية، للانتقام من هزيمة اليوم السابق، وكانت قوة كتائب جيش التحرير الأربع لا تزيد على خمسمائة مقاتل، تم توزيعهم على امتداد سبعة كيلومترات في كمين محكم يجاور الطريق. ومكث المجاهدون في مراكزهم وأماكنهم ينتظرون وصول القافلة الإفرنسية الى منطقة القتل لينقضوا عليها. ووصلت القافلة، وأخذت في المرور من أمام قوة الكمين، وعلى مدى نار أسلحة المجاهدين، الذين لم يظهروا أي حركة واحدة، حتى أصبحت القافلة كلها محاصرة داخل دائرة الكمين. وفتح المجاهدون نيران أسلحتهم بصورة مباغتة، أذهلت القوات الافرنسية ونشرت الذعر والفوضى بين أفرادها، والتهمت النار سياراتها العسكرية، وتساقط جنود القوة الإفرنسية وضباطها قتلى بالمئات. وتوالت النجدات الإفرنسية، بعد أن وصلتها أخبار المعركة، وما نزل بالقوة من نكبة مدمرة. فتوزعت كتائب المجاهدين الى زمر ووحدات صغرى، وتابعت الاشتباك بالنيران مع القوات الإفرنسية، مع الانقضاض عليها كلما رأت الظروف

مناسبة لها. واستمرت الاشتباكات لمدة أسبوع كامل. وكان معظم الجنود الإفرنسيين الذين لقوا حتفهم بالجملة في هذه المعركة، هم من المجندين الذين وصلوا حديثاً من فرنسا.

انتشرت أخبار هذا الانتصار الرائع في كل أرجاء البلاد، وتركت أثراً عميقاً في أهالي الجنوب الجزائري بصورة خاصة، لأنهم لم يكونوا من قبل على اتصال بثوار ولاية وهران ـ أو الولاية الخامسة ـ وأصبحوا وهم يتحدثون بإعجاب وتقدير عن المصير الذي آل إليه (جيش آفلو) على أيدي الثوار الوهرانيين. وهم ينظرون الى المستقبل نظرة الأمل والتفاؤل والإيمان بحتمية النصر. وتغنى الشعراء الشعبيون ـ وما أكثرهم وأروعهم في جنوب البلاد ـ في أشعارهم وأزجالهم بهذا النصر الكبير الذي أعاد إلى أذهانهم ذكريات الأجداد الأبطال وملاحمهم الخالدة على الزمان.

ومقابل ذلك، تأثرت القوات الإفرنسية الى حد كبير بنتيجة هذه المعركة، وانهارت روحها المعنوية. وأصبحت نظرتها إلى الثوار مرتبطة بمشاعر الرعب والهلع . وتزعزعت صفوف (بن يونس) أو (بليونس) الذي حاول الإفرنسيون استخدامه ضد أمته وشعبه فجندوا له جيشاً هزيلاً معظم أفراده من المستوطنين للعمل ضد جيش التحرير وقوات الثورة. وهكذا، ومع حلول شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩٥٦ ، انتشرت آفاق العمليات إلى كل المناطق. ووصلت وحدات من (معسكر غليزان) إلى ناحية (تاهرت) وبذلك تم تعميم العمل الثوري العسكري في كل أنحاء الولاية. ودخلت الثورة الجزائرية مرحلة جديدة في جميع

الميادين الاجتماعية والسياسية والعسكرية. وأصبحت منطقة وهران بمقتضى التنظيم الجديد تحمل اسم (الولاية الخامسة)، وتعمل تحت قيادة (عبد الحفيظ بوصوف)، وقسمت الولاية بدورها إلى ثماني مناطق، مقسمة الى نواحٍ وأقسام، وحددت المسؤوليات تحديداً دقيقاً. وأدخلت الرتب العسكرية. وأصبح الجيش منظماً تنظيماً حديثاً. ومدرباً تدريباً عسكرياً جيداً. وكان لهذا التنظيم الجديد صداه الكبير في الداخل والخارج. وتدعمت الثورة بخروج الشباب المثقف لميدان العمل بعد إعلان الإضراب العام عن الدراسة في المدن، وتطوعهم في جيش التحرير، حيث قدموا خدمات كبيرة في ميدان نشر الوعي الاجتماعي والسياسي في صفوف الشعب. وأسهموا باطلاق طاقاته الكامنة، وتنظيمها لبناء الجزائر الجديدة.

تبع ذلك تغيير في الحالة النفسية للشعب، فقد انتشرت الفكرة الثورية بجانبيها الاجتماعي والسياسي. وكانت المنشورات والصحف الصادرة عن الولاية، توضح للشعب مبادىء الثورة وأهدافها، وتتحدث عن نشاط الثورة في الداخل والخارج. ونظم الموجهون السياسيون الخلايا الثورية في كل مكان من القرى والمدن. كما تكونت المجالس الشعبية التي ينتخبها الشعب بالاقتراع العام المباشر. وكانت الانتخابات تجري في الليل، ويقبل أفراد الشعب على الاشتراك فيها بحماسة رائعة.

وتقوم هذه المجالس، الى جانب اللجان الثلاثية، بكل الأعباء الإدارية والاجتماعية، من تعليم وقضاء وجمع للتبرعات، وإشراف على الخدمات الصحية، وإسعاف للمنكوبين من ضحايا

القمع الاستعماري. فيحصل المحتاجون والأيتام وعائلات المعتقلين والمجاهدين على الإعانات اللازمة لهم. وكثيراً ما كان يحدث أن تجد أسرة تعرضت للقمع الاستعماري وفقدت منزلها، خلال ساعة واحدة، بيتاً جديداً يؤويها، مع تقديم كل المساعدات من مأكل وثياب ، وسوى ذلك من متطلبات الحياة الضرورية.

وفي مجال الخدمات الصحية، أصبح في ولاية وهران ـ اعتباراً من عام ١٩٥٧ على وجه التحديد ـ عدد كبير من الأطباء والطلاب الذين درسوا في كليات الطب، والممرضين (وكان يتم من قبل تكليف الممرضين بتعليم المجاهدين مبادىء الاسعاف الأولية) وأدى توافر الأطباء الى دعم التنظيم الصحي. فأقيمت مراكز طبية ومستوصفات تعمل تحتِ الأرض ـ في الملاجىء ـ يعمل فيها الممرضون ويتردد عليها الأطباء. ونظمت مدرسة لإعداد الممرضين. ونجح أحد الاطباء باقامة مستشفى كامل الأجهزة والمختبرات، تحت الأرض، وبه أجهزة لإجراء التحاليل، والقيام بالتجارب الطبية، مع وجود أسرة كافية لمعالجة الحالات الخطيرة. ودرب عدداً من الممرضات الاختصاصيات لمعالجة النساء والمدنيين الذين أصبحوا بعد المقاطعة التامة للإدارة الإفرنسية وأجهزتها، يمتنعون عن الذهاب للأطباء الإفرنسيين. فكان من الضروري الاهتمام بمعالجتهم. وكان الطبيب يقوم بنفسه بجولات على القرى لمعالجة المرضى المدنيين ـ غير المقاتلين. وقد انتشر هذا التنظيم الصحي في جميع أنحاء الولاية، فكان يوجد في كل منطقة طبيبان أو ثلاثة أطباء، ومستشفى للجراحة العامة، الى جانب

المستوصفات ـ مراكز التمريض ـ في كل النواحي والأقسام.

* * *

تلك هي سطور قليلة في قصة بداية الثورة وفي عرض فصول هذه البداية من الإيجاز قدر ما فيها من التفصيل، وفيها من التشابه قدر ما فيها من الاضافات المثيرة والمفيدة في آن واحد. وقد كان بالمستطاع دمج تلك الفصول (الأقاصيص) في رواية واحدة لحذف ما ورد فيها من تشابه أو تكرار، غير أنها والحالة هذه ستفقد كثيراً من صورها الجمالية، كما ستفقد طبيعتها الطوعية في سرد الأحداث. وبالإضافة إلى ذلك، فان هذا التكرار المقبول في بعض الأحيان هو مما يساعد على تركيز بعض النقاط الهامة والحاسمة في (قصة بداية الثورة).

لقد بدأت الثورة بعد مرحلة طويلة من المخاض العسير، ولو أن الإعداد في المرحلة الأخيرة لم يتجاوز الشهور القليلة. ويعتبر ذلك برهاناً حاسماً، لا يقبل الجدل والنقاش، على قوة قاعدة الثورة في الوطن الجزائري وصلابتها، وهي القاعدة التي استمر العمل لبنائها ودعمها عشرات السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن انطلاقة الثورة من المنطقة الشرقية، وثبات قاعدتها فيها، لا يعود إلى العامل الجيواستراتيجي فقط، أي الى صعوبة منطقتي الأوراس والقبائل من الناحية الجغرافية، بقدر ما يعود الى طبيعة العامل البشري (الديموغرافي). فقد استطاع المسلمون في هذه القاعدة المحافظة على أصالتهم، والتمسك بعناصر قوتهم (الإسلام والعروبة)، فكان في ذلك الأساس الثابت للبناء الثوري الضخم.

وبعد، فقد انطلقت الثورة، وخاضت معاركها في إطار (حروب الإيمان). الايمان بالله وبقضية الوطن والمواطن المسلم والعربي. ولم يكن اختيار كلمتي السر والإجابة (خالد - عقبة) لإطلاق شرارة الثورة، إلا تأكيداً على ربط الثورة بأرضيتها الصلبة. وكان لفرنسا وأجهزتهاالاستعمارية دور لا ينكر في مساعدة الثورة على الانطلاق والتطور. فأساليب القمع الوحشية، ووسائل القهر والإذلال، قد تنجح لفترة مؤقتة، وقد تنتصر ضد شعب محروم الجذور (كالهنود الحمر مثلاً) غير أنه من المحال لها أن تنجح بصورة نهائية أو تنتصر بصورة حاسمة ضد شعب يضرب في أصالته الى أعماق التاريخ. وذلك هو الدرس الذي استوعبته جيداً مراكز القوى المضادة للعالم الإسلامي فمضت في أساليبها المتطورة لضرب هذه الأصالة (في المسجد الاسلامي والمدرسة الاسلامية)، وذلك هو الدرس الذي يجب على العالم الاسلامي - العربي استيعابه في فلسطين، وفي غير فلسطين من أقطار العالم الاسلامي. لمجابهة الحملات الضارية التي لا زالت تفتك بكيان الأمة الخالدة.

لقد نسج الثوار التاريخيون قصة بداية الثورة، بتضحياتهم وجهودهم ودمائهم، فدفعوا من أموالهم ثمن أسلحتهم، ووصلوا الليل بالنهار والأيام بالشهور في جهد مستمر لا يعرف التعب، ولا يتطرق إليه الوهن أو اليأس، وسط صعوبات لا توصف، حتى أمكن تسجيل بداية الحدث التاريخي، ثم مضى عدد كبير من رواد الثورة، شهداء إلى الملأ الأعلى، تاركين لإخوانهم في الله والوطن متابعة المسيرة على الطريق الذي رسموه بتضحياتهم

وأرواحهم. فكان هؤلاء الرواد نماذج حقيقية للثوار الحقيقيين والأحرار الأصلاء. لقد خرجوا على الدنيا، ووهبوها وجودهم وما يملكونه فكان في ذلك انتصارهم الحاسم (على النفس والهوى). وكان في هذا النصر العدة الحقيقية للنصر على الأعداء.

المراجع

١ ـ ثورة الجزائر «آلان سافاري» ترجمة نخلة كلاس. إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي ـ دمشق عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

٢ ـ ثورة الجزائر « جوان جليسبي » ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٦.

٣ ـ ليل الاستعمار « فرحات عباس » ترجمة وليم خوري ـ دمشق ـ ١٩٦٤.

٤ ـ أضواء على القضية الجزائرية « إبراهيم كبه » بغداد ـ ١٩٥٦.

٥ ـ الاستعمار وآثاره في الجزائر ـ الجمهورية الجزائرية ـ مكتب دمشق ـ قسم الدعاية ـ ١٩٥٨.

٦ ـ جغرافية الجزائر « حلمي عبد القادر علي ». دمشق ـ ١٩٦٨.

1 - RECITS DE FEU (PRESENTATION DE MAHFOUD K. ADDACHE) SNED - S.N. EL MOUDJAHID - ALGER - 1977.

الفهرس